

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَمَلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قُرُنٍ فَتَادَوْا وَأَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ص﴾ قراءة العامة ﴿صن﴾ بجزم الدال على الوقف؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل: ﴿الم﴾ و﴿المر﴾. وقرأ أبي بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم: ﴿صاد﴾ بكسر الدال بغير تنوين. ولقراءته مذهبان: أحدهما: أنه من صادي يصادي إذا عارض، ومنه: ﴿فَأَلَّتْ لَهُ تَصَدُّئِي﴾ [عبس: ٦] أي تعرض. والمصاداة: المعارضة، ومنه الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية. فالمعنى: صاد القرآن بعملك؛ أي: عارضه بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره، وانه عن نواحيه. النحاس: وهذا المذهب يروى عن الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة. وفتح أن المعنى اتله وتعرض لقراءته. والمذهب الآخر: أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿صاد﴾ بفتح الدال مثله «قاف» و«نون» بفتح آخرها. وله في ذلك ثلاثة مذاهب: أحدهم: أن يكون بمعنى: اتل. والثاني: أن يكون فتح لالتقاء الساكنين واختار الفتح للاتباع؛ ولأنه أخف الحركات. والثالث: أن يكون منصوبا على القسم بغير حرف؛ كقولك: الله لأفعلن، وقيل: نصب على الإغراء.

وقيل: معناه: صاد محمد قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به. وقرأ ابن أبي إسحاق أيضا ﴿صاد﴾ بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضا على حذف حرف القسم، وهذا بعيد وإن كان سبويه قد أجاز مثله. ويجوز أن يكون مشبها بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها. وقرأ هارون الأعور ومحمد ابن السميع: ﴿صادُ﴾ و«قافُ» و«نون» بضم آخرهن؛ لأنه المعروف بالبناء في غالب الحال، نحو منذ وقيل وبعد. و﴿صن﴾ إذا جعلته اسما للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سميت مؤنثا بمذكر لا ينصرف وإن قلت حروفه.

وقال ابن عباس وجابر بن عبد الله وقد سئلا عن ﴿صن﴾ فقالا: لا ندري ما هي (١). وقال عكرمة: سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن ﴿صن﴾ فقال: ﴿صن﴾ كان بحرا بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار (٢). وقال سعيد بن جبير: ﴿صن﴾ بحر يحيي الله به الموتى بين

(١) ضعيف: أخرجه عبد بن حميد من طريق أبي صالح، قال: سئل جابر، وابن عباس، قلت: وأبو صالح: كذاب، انظر: الدر المنثور (٥/ ٥٥٦) للسيوطي.

(٢) لا يصح: وقد ذكره الألويسي (١٧/ ٢٨٢) في تفسيره، وذكر التالي أيضا.

النفختين^(١). وقال الضحاك: معناه صدق الله^(٢). وعنه أن ﴿ص﴾ قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى^(٣). وقاله السدي، وروي عن ابن عباس^(٤). وقال محمد بن كعب: هو مفتاح أسماء الله تعالى: صمد، وصانع المصنوعات، وصادق الوعد^(٥). وقال قتادة: هو اسم من أسماء الرحمن^(٦). وعنه أنه اسم من أسماء القرآن^(٧). وقال مجاهد: هو فاتحة السورة^(٨). وقيل: هو مما استأثر الله تعالى بعلمه وهو معنى القول الأول. وقد تقدم جميع هذا في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء؛ أقسم بالقرآن تنبيها على جلالة قدره؛ فإن فيه بيان كل شيء، وشفاء لما في الصدور، ومعجزة للنبي ﷺ. ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء، وهو اسم معتل والأصل فيه ذوى على فعل. قال ابن عباس ومقاتل: معنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي البيان^(٩). الضحاك: ذي الشرف، أي: من آمن به كان شرفا له في الدارين^(١٠)؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]. أي شرفكم. وأيضا القرآن شريف في نفسه لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره. وقيل: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي فيه ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين. وقيل: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي فيه ذكر أسماء الله وتمجيده. وقيل: أي ذي الموعدة والذكر. وجواب القسم محذوف. واختلف فيه على أوجه: فقيل جواب القسم ﴿ص﴾؛ لأن معناه حق فهي جواب قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ كما تقول: حقا والله، نزل والله، وجب والله؛ فيكون الوقف من هذا الوجه على قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ حسنا، وعلى ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ تماما. قاله ابن الأنباري. وحكى معناه الثعلبي عن الفراء. وقيل: الجواب ﴿بَلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ لأن ﴿بَلِّ﴾ نفي لأمر سبق وإثبات لغيره؛ قاله القتيبي؛ فكأنه قال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ بَلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ عن قبول الحق وعداوة لمحمد ﷺ. أو ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبر عن قبول الحق. وهو كقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [بل عجبوا] [ق]. وقيل: الجواب ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [ق: ٣٦] كأنه قال: والقرآن لكم أهلكتنا؛ فلما تأخرت ﴿كَمْ﴾ حذفت اللام منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [الشمس: ٩] أي: لقد أفلح. قال المهدي: وهذا مذهب الفراء. ابن الأنباري: فمن هذا الوجه لا يتم الوقف

(١) لا يصح: انظر الألويسي (٢٨٢/١٧) في تفسيره، وقال: والله أعلم بصحة الخبرين.

(٢- ٨) زاد المسير (٥/ ٢٢٥) لابن الجوزي - رحمه الله.

وقد رواها الطبري (٢٣/ ١٢١، ١٢٢) في تفسيره بأسانيد موصولة لا تخلو من ضعيف، أو هي مقطوعات على التابعين ولا تصح - كما سبق.

قلت: وقد أغنانا الله تعالى، عن هذا كله، وقد سبق ذلك في أول سورة البقرة - رحمه الله تعالى.

(٩) إنما قال ابن عباس: (ذو الشرف)؛ لا (ذو البيان)؛ وهذا قول قتادة، وانظر: زاد المسير (٥/ ٣٢٥) لابن الجوزي.

(١٠) ضعيف: لضعف أحد رواته وهو يحيى بن عمارة الراوي عن سعيد، وهو مجهول ولم يوثقه غير ابن حبان، وجهل الجمهور الرجل، ثم وجدت أن الراوي عنه هو الأعمش سليمان بن مهران وقد عنعنه، وانظر الطبري (٢٣/ ١٢٣) في تفسيره.

وقول الضحاك: (ذو الشرف) عند الطبري (٢٣/ ١٢٣) في تفسيره، وزاد المسير (٥/ ٢٢٥) لابن الجوزي.

على قوله: ﴿ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾. وقال الأخفش: جواب القسم ﴿ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ ١٤ ﴾ ونحو منه قوله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ٩٧] وقوله: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١٥ ﴾ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ ﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ٣ ﴾ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ [الطارق]. ابن الأنباري: وهذا قبيح؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص. وقال الكسائي: جواب القسم قوله ﴿ إِنْ ذَلِكَ لِحَقِّ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٦٤]. ابن الأنباري: وهذا أقبح من الأول؛ لأن الكلام أشد طولاً فيما بين القسم وجوابه. وقيل الجواب قوله: ﴿ إِنْ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ٥٤ ﴾ [ص]. وقال قتادة: الجواب محذوف تقديره: ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١٦ ﴾ لتبعثن ونحوه (١).

قوله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ أي تكبر وامتناع من قبول الحق؛ كما قال جل وعز: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٦] والعزة عند العرب: الغلبة والقهر. يقال: من عز بز؛ يعني من غلب سلب. ومنه ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ [ص: ٢٣] أراد غلبني. وقال جرير:

يَعُزُّ عَلَيَّ الطَّرِيقَ بِمَنْكِبِهِ
كَمَا ابْتَرَكَ الْخَلِيعُ عَلَى الْقِدَاحِ

أراد يغلب. ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أي في إظهار خلاف ومباينة. وهو من الشق كأن هذا في شق وذلك في شق. وقد مضى في «البقرة» مستوفى (٢).

قوله تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي: من قوم كانوا أمنع من هؤلاء. و﴿ كَمْ ﴾ لفظة التكثير ﴿ فَنَادُوا ﴾ أي بالاستغاثة والتوبة. والنداء رفع الصوت؛ ومنه الخبر: «ألقه على بلال فإنه أندى منك صوتاً» (٣) أي: أرفع. ﴿ وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال الحسن: نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. النحاس: وهذا تفسير منه لقوله عز وجل: ﴿ وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس: ﴿ وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال: ليس بحين نزو ولا فرار (٤)؛ قال: ضبط القوم جميعاً. قال الكلبي: كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض مناص؛ أي: عليكم بالفرار والهزيمة، فلما أتاهم العذاب قالوا: مناص؛ فقال الله عز وجل: ﴿ وَآلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير: فنادوا: مناص، فحذف لدلالة بقية الكلام عليه؛ أي: ليس الوقت وقت ما تنادون به. وفي هذا نوع تحكم؛ إذ يبعد أن يقال: كل من هلك من القرون كانوا يقولون:

(١) انظر: الطبري (٢٣/ ١٢٣) في تفسيره.

(٢) عند الآية (١٣٧).

(٣) صحيح: وقد سبق، عن عبد الله بن زيد صحيحاً ضمن قصة الأذان.

(٤) حسن: من الطريق ذاته كما عند الطبري (٢٣/ ١٢٥) في تفسيره، والحاكم (٢/ ٤٧٠) في المستدرک، وصححه، وعزاه السيوطي (٥/ ٥٥٧) في الدر المنثور للطيالسي، والفريابي، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

قلت: وهذا قول عامة أهل التفسير: الضحاک، والعمري، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد. وأفضل القول ما جاء مفسراً عن قتادة الذي قال: نادى القوم على غير حين نداء، وأرادوا التوبة حين عابنوا عذاب الله فلم يقبل منهم ذلك.

وقول السدي: حين نزل بهم العذاب لم يستطيعوا الرجوع إلى التوبة، ولا فراراً من العذاب. الطبري (٢٣/ ١٢٥) في تفسيره.

مناص عند الاضطراب. وقيل: المعنى ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: لا خلاص وهو نصب بوقوع «لا» عليه. قال القشيري: وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو في: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وقال الجرجاني: أي فنادوا حين لا مناص؛ أي ساعة لا منجى ولا فوت. فلما قدم «لا» وأخر ﴿حِينَ﴾ اقتضى ذلك الواو، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبراً؛ مثل قولك: جاء زيد راكباً؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبراً اقتضى الواو مثل: جاءني زيد وهو راكب، فحين ظرف لقوله: ﴿فَنَادُوا﴾. والمناص: بمعنى التأخر والفرار والخلاص؛ أي: نادوا لطلب الخلاص في وقت لا يكون لهم فيه خلاص. قال الفراء:

أَمِنْ ذَكَرَ لَيْلَى إِذَا نَأَتْكَ تَنُوصُ

يقال: ناص عن قرنه يُنوصُ نَوْصًا وَمَنَاصًا، أي فر وزاغ. النحاس: ويقال: نَاصُ يُنُوصُ: إذا

تقدم.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، والنوص: الحمار الوحشي. واستناص، أي تأخر؛ قاله الجوهري. وتكلم النحويون في ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ وفي الوقف عليه، وكثر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلام في كتاب: «القراءات» وكل ما جاء به إلا يسيراً مردوداً. فقال سيويه: ﴿ولات﴾ مشبهة بليس والاسم فيها مضمرة؛ أي ليست أحياناً حين مناص. وحكي أن من العرب من يرفع بها فيقول: ولات حين مناص. وحكي أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفاً كما كان الاسم محذوفاً في النصب؛ أي ولات حين مناص لنا. والوقف عليها عند سيويه والفراء ﴿وَلَاتَ﴾ بالتاء ثم تبتدئ ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ هو قول ابن كيسان والزجاج. قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيويه؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست، يقال لات. والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء ولاء. وهو قول المبرد محمد بن يزيد. وحكى عنه علي بن سليمان: أن الحجة في ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال: ثمة ورُبه. وقال القشيري: وقد يقال: ثُمَّتْ بمعنى ثُم، ورَبَّتْ بمعنى رب؛ فكانهم زادوا في «لا» هاء فقالوا: لاه، كما قالوا في ثمة عند الوصل صارت تاء. وقال الثعلبي: وقال أهل اللغة: ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ مفتوحتان كأنهما كلمة واحدة، وإنما هي «لا» زيدت فيها التاء نحو رب وربت، وثم وثمت. قال أبو زيد الطائي:

طَلَبُوا صَلْحَنَا وَوَلَاتَ أَوَانَ
فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينَ بَقَاءِ

وقال آخر:

تَذَكَّرْتُ حُبَّ لَيْلَى لَاتَ حِينًا
وَأَمْسَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا

ومن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء:

فَلْتَعْرِفَنَّ خَلَاتِنَا مَشْمُولَةً
وَلْتَتَدَمَّنَّ وَوَلَاتَ سَاعَةَ مَنَدَمَ

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيويه والأخفش يذهبون إلى أن ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ التاء منقطعة من حين، ويقولون: معناها وليست. وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين. وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: الوقف عندي على هذا الحرف «ولا» والابتداء «تحين مناص» فتكون التاء مع حين. وقال بعضهم: ﴿لات﴾ ثم يبتدئ فيقول: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾. قال المهدي: وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين وهو غلط عند

النحويين، وهو خلاف قول المفسرين. ومن حجة أبي عبيد أن قال: إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن؛ وأنشد لأبي وجزة السعدي:

العَاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ أَيْنَ السُّطِيمِ

وأنشد لأبي زبيد الطائي:

طلبوا صلحنا ولا تأوانٍ فأجبنا أن ليس حين بقاء

فأدخل التاء في أوان. قال أبو عبيد: ومن إدخالهم التاء في الآن، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، فذكر مناقبه ثم قال: اذهب بها تلان معك. وكذلك قول الشاعر:

نَوَّلِي قَبْلَ نَأْيِ دَارِي جُمَانًا وَصَلِينَا كَمَا رَعَمْتِ تَلَانًا

قال أبو عبيد: ثم مع هذا كله إنني تعدت النظر في الذي يقال له الإمام - مصحف عجمان - فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين. فقال أبو جعفر النحاس: أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وجزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلها على خلاف ما أنشده؛ وفي أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد:

العَاطِفُونَ وَلَاتَ مَا مِنْ عَاطِفٍ

والرواية الثانية:

العَاطِفُونَ وَلَاتَ حِينَ تَعَاطِفٍ

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان:

العَاطِفُونَ حِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ

جعلها هاء في الوقف وتاء في الإدراج، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث. الرواية الرابعة:

العَاطِفُونُهُ حِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ

وفي هذه الرواية تقديران؛ أحدهما وهو مذهب إسماعيل بن إسحاق: أن الهاء في موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيدا فإذا كُنيت قلت: الضاربوه. وأجمل سيبويه في الشعر: الضاربونه، فجاء إسماعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه في إجازته مثله. والتقدير الآخر العاطفون على أن الهاء لبيان الحركة، كما تقول: مر بنا المسلمونه في الوقف، ثم أجريت في الوصل مجراها في الوقف؛ كما قرأ أهل المدينة: «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي (٢٩)» [الحاقة] وأما البيت الثاني فلا حجة له فيه؛ لأنه يوقف عليه: ولات أوان، غير أن فيه شيئا مشكلا؛ لأنه يروي: ولات أوان بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعا أو منصوبا. وإن كان قد روي عن عيسى بن عمر أنه قرأ: «ولات حين مناص» بكسر التاء من لات والنون من حين، فإن الشبث عنه أنه قرأ: «ولات حين مناصي» فبني «لات» على الكسر ونصب «حين». فأما: ولات أوان، ففيه تقديران؛ قال الأخفش: فيه مضمير أي: ولات حين أوان. قال النحاس: وهذا القول بين الخطأ. والتقدير الآخر عن أبي إسحاق قال: تقديره: ولات أواننا، فحذف المضاف إليه، فوجب ألا يعرب، وكسره لالتقاء الساكنين. وأنشده محمد بن يزيد: ولات أوان

بالرفع . وأما البيت الثالث فبييت مولد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة . على أن محمد بن يزيد رواه : كما زعمت الآن . وقال غيره : المعنى كما زعمت أنت الآن . فأسقط الهمزة من أنت والنون . وأما احتجاجه بحديث ابن عمر ، لما ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له : اذهب بها تلان إلى أصحابك فلا حجة فيه ؛ لأن المحدث إنما يروي هذا على المعنى . والدليل على هذا : أن مجاهدا يروي عن ابن عمر هذا الحديث وقال فيه : اذهب فاجهد جهدك . ورواه آخر : اذهب بها الآن معك^(١) . وأما احتجاجه بأنه وجدها في الإمام : «تمين» . فلا حجة فيه ؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف ، فإن كان مخالفا لها فليس بإمام لها ، وفي المصاحف كلها «ولات» فلو لم يكن في هذا : إلا هذا الاحتجاج لكان مقنعا . وجمع مناصب مناوص .

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴾ ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ﴿

قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ ﴿ أَنْ ﴾ في موضع نصب والمعنى من أن جاءهم . قيل : هو متصل بقوله : ﴿ في عزة وشقاق ﴾ : أي : في عزة وشقاق وعجبوا ، وقوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ معترض . وقيل : لا بل هذا ابتداء كلام ؛ أي : ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم . ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ ﴾ أي يجيء بالكلام المموه الذي يخدع به الناس ؛ وقيل : يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته ﴿ كَذَّابٌ ﴾ أي : في دعوى النبوة .

قوله تعالى : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ مفعولان ، أي : صير الآلهة إلها واحدا . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي عجيب . وقرأ السلمي : «عُجَابٌ» بالتشديد . والعُجَاب والعُجَاب والعُجَاب سواء . وقد فرق الخليل بين عجيب وعجَاب فقال : العجيب العجب ، والعجَاب الذي قد تجاوز حد العجب ، والطويل الذي فيه طول ، والطوال : الذي قد تجاوز حد الطول . وقال الجوهري : العجيب الأمر الذي يتعجب منه ، وكذلك العجَاب بالضم ، والعجَاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال مقاتل : «عجَاب» لغة أزد شنوءة . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب : فجاءت قريش إليه ، وجاء النبي ﷺ ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، قال : وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا بن أخي ما تريد من قومك ؟ فقال : «يا عم إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب وتؤذي إليهم بها الجزية العجم» فقال : وما هي ؟ قال : «لا إله إلا الله» قال : فقالوا : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ قال : فنزل فيهم القرآن : ﴿ صَوِّرْنَا الْقُرْآنَ فِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴾ ﴿٧﴾ خرج الترمذي أيضا بمعناه . وقال : هذا حديث حسن صحيح^(٢) . وقيل : لما أسلم

(١) صحيح : هذا عند البخاري (٣٦٩٨) في فضائل الصحابة ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - في ذكر تفضيله لعثمان - رضي الله عنه ، ونسبه .

وذكر الحافظ في الفتح أن ابن عمر قالها له ، كما ذكر الطيب تهكما به ، أي توجه لما تمسكت به ، فإنه لا ينفعك بعدما بيئت لك ، الفتح (٧/ ١٥٩) ، وقوله فاجهد جهدك برقم (٣٧٠٤) في فضائل الصحابة .
(٢) حسن صحيح : الترمذي (٣٢٣٢) في التفسير ، والنسائي (٨٧٦٩) في الكبرى ، وضعفه الألباني هناك ، والطبري (٢٣/ ١٢٨) في تفسيره .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه شق على قريش إسلامه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: اقض بيننا وبين ابن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال: يابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء، فلا تمل كل الميل على قومك. قال: «وماذا يسألونني؟» قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك. فقال النبي ﷺ: «أتعطونني كلمة واحدة وتملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.» فقال أبو جهل: لله أبوك لتعطينكها وعشر أمثالها. فقال النبي ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله» فنفروا من ذلك وقاموا؛ فقالوا: «أجعل الآلهة إلهًا واحدًا» فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد. فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى قوله: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ [ص: ١١٢] (١).

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى الْهَيْكَةِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آخْتِلاقٌ ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوؤُوا عَذَابٍ ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿أَمْرٌ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿جُدُّ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَخْرَابِ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا﴾ «المَلَأُ» الأشراف، والانطلاق: الذهاب بسرعة؛ أي: انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض ﴿أَنْ آمَشُوا﴾ أي: امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه. ﴿وَأَصْبَرُوا عَلَى الْهَيْكَةِ﴾ وقيل: هو إشارة إلى مشيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق. وفي رواية محمد بن إسحاق: أنهم أبو جهل بن هشام، وشيبة وعتبة أبناء ربيعة بن عبد شمس، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو معيط؛ جاؤوا إلى أبي طالب فقالوا: أنت سيدنا وأنصفنا في أنفسنا، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه، فقد تركوا آلهتنا وطعنوا في ديننا؛ فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال له: إن قومك يدعونك إلى السواء والنصفة. فقال النبي ﷺ: «إنما أَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ» فقال أبو جهل: وعشرا. قال: «تقولون: لا إله إلا الله» فقاموا وقالوا: «أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا» الآيات (٢). ﴿أَنْ آمَشُوا﴾ «أَنْ» في موضع نصب والمعنى بأن امشوا. وقيل: ﴿أَنْ﴾ بمعنى: أي؛ أي: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: امشوا؛ وهذا تفسير انطلقهم لا أنهم تكلموا بهذا اللفظ. وقيل: المعنى انطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام: ﴿آمَشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى الْهَيْكَةِ﴾، أي: على عبادة آلهتكم. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: هذا الذي جاء به محمد عليه السلام ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم وغير تنزل بهم. وقيل ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ كلمة تحذير؛ أي: إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا، ونكون له أتباعا فيتحكم فينا بما يريد، فاحذروا أن تطيعوه. وقال مقاتل: إن عمر لما أسلم وقوي به الإسلام شق ذلك على قريش فقالوا: إن إسلام عمر في قوة

= قلت: لكن أطمع أن يكون حسنا إن شاء الله تعالى .

(١) ذكره الواحدي (ص ٣٠٩، ٣١٠) معلقًا بلا سند في أسباب النزول، وقال ابن حجر (ص ١٤١) في الكافي الشاف: «ذكره الثعلبي بغير سند»، وسواء: العدل.

(٢) ابن إسحاق صاحب السيرة مدلس، وانظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٦٩) بنحوه.

الإسلام لشيء يراد (١) .

قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والقرظي وقتادة ومقاتل والكلبي والسدي: يعنون ملة عيسى النصرانية وهي آخر الملل (٢) . والنصارى يجعلون مع الله إلهها . وقال مجاهد وقتادة أيضا: يعنون ملة قريش . وقال الحسن: ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان (٣) . وقيل: أي: ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمدا رسول حق . ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ أي: كذب وتخوُّص؛ عن ابن عباس وغيره (٤) . يقال: خلق واختلق ، أي: ابتدع . وخلق الله عز وجل الخلق من هذا؛ أي: ابتدعهم على غير مثال .

قوله تعالى: ﴿أُوْنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هو استفهام إنكار، والذكر ها هنا القرآن . أنكروا اختصاصه بالوحي من بينهم . ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ أي: من وحيي وهو القرآن، أي: قد علموا أنك لم تنزل صدوقا فيما بينهم، وإنما شكوا فيما أنزلته عليك: هل هو من عندي أم لا . ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٌ﴾ أي: إنما اغتروا بطول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشك، ولما قالوا ذلك؛ ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ . و﴿لَمَّا﴾ بمعنى: «لم» و«ما» زائدة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] .

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ قيل: أم لهم هذا فيمنعوا محمدا عليه السلام مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة . و﴿أَمْ﴾ قد ترد بمعنى التقرُّع إذا كان الكلام متصلا بكلام قبله؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أم يقولون افتراءه [السجدة: ١] وقد قيل: إن قوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ متصل بقوله: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ص: ٤] فالمعنى أن الله عز وجل يرسل من يشاء؛ لأن خزائن السموات والأرض له ﴿أَمْ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: فإن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد . يقال: رقي يرقى وارتنقى إذا صعد . ورقى يرقى رقيا مثل رمى يرمى رميا من الرقية . قال الربيع بن أنس: الأسباب أرق من الشعر وأشد من الحديد ولكن لا ترى (٥) . والسبب في اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من جبل أو غيره . وقيل: الأسباب أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها؛ قاله مجاهد وقتادة . قال زهير:

ولو رام أسباب السماء يسلم

وقيل: الأسباب السموات نفسها؛ أي: فليصعدوا سماء سماء . وقال السدي: ﴿في الأسباب﴾ في الفضل والدين . وقيل: أي: فليعلوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة . وهو معنى قول أبي عبيدة .

(١) معضل: ومقاتل بعيد عن النبي ﷺ بأزمة .

(٢) قول ابن عباس منقطع بينه وبين ابن أبي طلحة ، وبسند ضعيف من رواية العوفيين ، كما في تفسير الطبري (٢٣ / ١٣٠) ، وذكر قول السدي ، والقرظي ، والباقون عند ابن الجوزي (٥ / ٢٢٧) في زاد المسير .

(٣) وهو قول قتادة أيضاً : زاد المسير (٥ / ٢٢٧) لابن الجوزي .

(٤) منقطع : بين علي بن أبي طلحة الوالبي ، وابن عباس - رضي الله عنهما - كما في تفسير الطبري (٢٣ / ١٣١) .

(٥) حسن : الطبري (٢٣ / ١٣٣) في تفسيره .

وقيل: الأسباب الحبال؛ يعني إن وجدوا جبالاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا؛ وهذا أمر تويخ وتعجيز. ثم وعد نبيه ﷺ النصر عليهم فقال: ﴿جُنْدًا مَهْلِكًا﴾ ﴿مَاءً﴾ صلة وتقديره هم جند، فـ ﴿جُنْدٌ﴾ خبر ابتداء محذوف. ﴿مَهْزُومٌ﴾ أي: مقموع ذليل قد انقطعت حجته؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا. ويقال: تهزمت القربة إذا انكسرت، وهزمت الجيش كسرته. والكلام مرتبط بما قبل؛ أي: ﴿بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (١) وهم جند من الأحزاب مهزومون، فلا تغمك عزتهم وشقاقهم، فإني أهزم جمعهم وأسلم عزمهم. وهذا تأنيس للنبي ﷺ؛ وقد فعل بهم هذا في يوم بدر. قال قتادة: وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر (١). و﴿هَنَالِكٌ﴾ إشارة لبدر وهو موضع تحزبهم لقتال محمد ﷺ. وقيل: المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزبوا على النبي ﷺ. وقد مضى ذلك في «الأحزاب» (٢). والأحزاب: الجند، كما يقال: جند من قبائل شتى. وقيل: أراد بالأحزاب القرون الماضية من الكفار. أي: هؤلاء جند على طريقة أولئك كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: على ديني ومذهبي. وقال الفراء: المعنى هم جند مغلوب؛ أي: ممنوع عن أن يصعد إلى السماء. وقال القتبي: يعني أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم، فهم لا يقدرّون على أن يدعوا لشيء من آلهتهم، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن رحمة الله، ولا من ملك السموات والأرض.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٣٣﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴿١٣٤﴾ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرها تعزية للنبي ﷺ وتسلية له؛ أي: هؤلاء من قومك يا محمد جند من الأحزاب المتقدمين الذين تحزبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقسى من هؤلاء فأهلكوا. وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، واختلف أهل العربية في ذلك على قولين: أحدهما: أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث. الثاني: أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمّر تنبيهاً عليه؛ كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمِنْ شَاءِ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس] ولم يقل: ذكرها؛ لأنه لما كان المضمّر فيه مذكراً ذكره؛ وإن كان اللفظ مقتضياً للتأنيث. ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد. وقد اختلف في تأويل ذلك؛ فقال ابن عباس: المعنى ذو البناء المحكم (٣). وقال الضحاك: كان كثير البنيان، والبنيان يسمى أوتاداً (٤). وعن ابن عباس أيضاً وقاتدة وعطاء: أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب له عليها (٥). وعن الضحاك أيضاً: ذو القوة

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٣/ ١٣٣) في تفسيره.

(٢) عند الآية (٩).

(٣) ذكره البغوي (٧/ ٧٣) في تفسيره غير مسند، وسيأتي في سورة الفجر - إن شاء الله تعالى.

(٤) ضعيف جداً: للانقطاع بين الطبري وشيخه البخاري، وفي السند إلى الضحاك جوير وهو واه، وانظر: الطبري (٢٣/ ١٣٤) في تفسيره.

(٥) ذكره الطبري (٢٣/ ١٣٤) في تفسيره، عن ابن عباس، وكاد السند أن يكون صحيحاً لولا الانقطاع بين =

والبطش^(١). وقال الكلبي ومقاتل: كان يعذب الناس بالأوتاد، وكان إذا غضب على أحد مده مستلقيا بين أربعة أوتاد في الأرض، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت^(٢). وقيل: كان يشيح المعذب بين أربع سوار؛ كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ويتركه حتى يموت. وقيل: ذو الأوتاد، أي: ذو الجنود الكثيرة فسميت الجنود أوتادا؛ لأنهم يقوون أمره كما يقوي الوتد البيت. وقال ابن قتيبة: العرب تقول: هم في عز ثابت الأوتاد، يريدون دائما شديدا. وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد. وقال الأسود بن يعفر:

ولقد غنّوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد

وواحد الأوتاد، وتد بالكسر، وبالفتح لغة. وقال الأصمعي: يقال: وتد واتد كما يقال: شغل

شاغل. وأنشد:

لاقت على الماء جديلا وأتدا ولم يكن يخلفها المواعدا

قال: شبه الرجل بالجدل. «وَتَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ» أي: الغيضة. وقد مضى ذكرها في

«الشعراء»^(٣) وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «ليكة» بفتح اللام والتاء من غير همز^(٤). وهمز الباقون

وكسروا التاء. وقد تقدم هذا. «وَأُولَئِكَ الْأَحْزَابُ» أي: هم الموصوفون بالقوة والكسرة؛ كقولك: فلان هو

الرجل. «إِنْ كُلُّ» بمعنى ما كل. «إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ» أي: فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب.

وأثبت يعقوب الياء في «عذابي» و«عقابي»^(٥) في الحالين وحذفها بالباقون في الحالين. ونظير هذه الآية

قوله عز وجل: «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ»^(٦) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ

وَتَمُودَ» [غافرا] فسمى هذه الأمم أحزابا.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ

الْحِسَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى: «وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً» «يَنْظُرُ» بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: «انظرونا

نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ» [الحديد: ١٣]. «هَؤُلَاءِ» يعني كفار مكة. «إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً» أي: نفخة القيامة. أي:

ما ينتظرون بعد ما أصيبوا بيدر إلا صيحة القيامة. وقيل: ما ينتظر أحياءهم الآن إلا الصيحة التي هي

النفخة في الصور، كما قال تعالى: «وَمَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ»^(٧) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

تَوْصِيَةً [يس]، وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت. وقيل: أي: ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة

المتدينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهي النفخة. وقال عبد الله بن عمرو: لم تكن صيحة في

السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض. «مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ» أي: من ترداد؛ عن ابن

= الطبري وشيخه: علي بن الهيثم .

(١، ٢) البغوي (٧/ ٧٣) في تفسيره بلا سند، وزاد عزوه إلى السدي أيضا .

(٣) عند الآية (١٧٦) .

(٤، ٥) قراءتان متواترتان : انظر: تقريب النشر (ص١٥٢، ١٦٧) على الترتيب .

عباس (١). مجاهد: ما لها رجوع (٢). قتادة: ما لها من مثوية (٣). السدي: مالها من إفاقة (٤). وقرأ حمزة والكسائي: « ما لها من فُواق » بضم الفاء. الباقون بالفتح. الجوهري: والفُواق والفُواق ما بين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تحلب ثم تترك سوية يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب. يقال: ما أقام عنده إلا فواقاً؛ وفي الحديث: «العيادة قدر فواق الناقة» (٥). وقوله تعالى: «مأ لها من فُواقٍ» يقرأ بالفتح والضم، أي: ما لها من نظرة وراحة وإفاقة. والفيقة بالكسر اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين: صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ قال الأعشى يصف بقرة:

حتى إذا فيقةً في ضرعها اجتمعتْ جاءت لترضيع شقِّ النَّفسِ لو رَضَعَا
والجمع فيق ثم أفواق مثل شبر وأشبار ثم أفاويق. قال ابن همام السلولي:
وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدر لها ثعل (٦)

والأفاويق، أيضاً: ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يطر ساعة بعد ساعة. وأفاقات الناقة إفاقة، أي: اجتمعت الفيقة في ضرعها؛ فهي مفيقة ومفيقة - عن أبي عمرو - والجمع مفاويق. وقال الفراء وأبو عبيدة وغيرهما «من فُواقٍ» بفتح الفاء، أي: راحة لا يفيقون فيها، كما يفيق المريض والمغشي عليه. و«من فُواقٍ» بضم الفاء من انتظار. وقد تقدم أنهما بمعنى وهو ما بين الحلبتين.

قلت: والمعنى المراد أنها ممتدة لا تقطع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدثنا رسول الله ﷺ ونحن في طائفة من أصحابه... الحديث. وفيه: «يأمر الله، عز وجل إسرائيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدها ويديها ويطولها يقول الله عز وجل: «وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فُواقٍ» (٧) وذكر الحديث، خرج علي بن معبد وغيره كما ذكرناه في كتاب التذكرة (٨).

قوله تعالى: «وقالوا ربنا عجل لنا قطناً» قال مجاهد: عذابنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لتتعم به في الدنيا (٩). وقاله سعيد بن جبير. ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب: قط، وللكتاب المكتوب بالجائزة: قط. قال الفراء: القط في كلام العرب الحظ والنصيب. ومنه قيل للصلك: قط. وقال أبو عبيدة والكسائي: القط: الكتاب بالجوائز والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته
بغبطته يعطي القطوط ويأفق

يعني كتب الجوائز. ويروى: بأمنته بدل بغبطته، أي: بنعمته وحاله الجليلة، ويأفق يصلح. ويقال: في جمع قط أيضاً قططة، وفي القليل: أقط وأقطاط. ذكره النحاس. وقال السدي: سألوا

(١) منقطع: بين ابن عباس وعلي بن أبي طلحة، كما عند الطبري (٢٣ / ١٣٦) في تفسيره.

(٢) (٣، ٢) صحيحان: الطبري (٢٣ / ١٣٦) في تفسيره.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٧).

(٥) ضعيف: السيوطي في الصغير (٥٧٤٢)، وذكره الألباني (٣٨٩٩) في ضعيف الجامع وضعفه هناك.

(٦) ثعل: زيادة في أطباء الناقة والبقرة والشاة، ذكره للمبالغة في الارتضاع، اللسان «ثعل».

(٧) ضعيف: رواه الطبري (٢٣ / ١٣٥، ١٣٦) في تفسيره من طريق رجل، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة، وفي جهالة وإبهام، وقد سبق تضعيفه قبل الآن.

(٨، ٩) صحيح إليهما: الطبري (٢٣ / ١٣٨) في تفسيره.

أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به . وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى عجل لنا أرزاقنا . وقيل: معناه عجل لنا ما يكفيننا؛ من قولهم: قطني؛ أي: يكفيني . وقيل: إنهم قالوا ذلك استعجالا لكتبهم التي يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلى عليهم بذلك القرآن . وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩] . ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ١٠] . وأصل القط القط وهو القطع، ومنه قط القلم؛ فالقط اسم للقطعة من الشيء كالقسم والقسم فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثر استعمالا وأقوى حقيقة . قال أمية ابن أبي الصلت:

قَوْمٌ لَهُمْ سَاحَةُ الْعِرَاقِ وَمَا يُجْبَى إِلَيْهِ وَالْقَطُّ وَالْقَلَمُ
﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: قبل يوم القيامة في الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد . وكل هذا استهزاء منهم .

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمر نبيه ﷺ بالصبر لما استهزؤا به . وهذه منسوخة بآية السيف .

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلاه بكل ما تقدم ذكره . ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم؛ وليعلم أن له في الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء . وقيل: المعنى اصبر على قولهم، واذكر لهم أفاضل الأنبياء؛ لتكون برهانا على صحة نبوتك . وقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ إظهارا لشرفه بهذه الإضافة ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوة في العبادة . وكان يصوم يوما ويفطر يوما (١) وذلك أشد الصوم وأفضله؛ وكان يصلي نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدو، وكان قويا في الدعاء إلى الله تعالى . ويقال: الأيد والأد كما تقول: العيب والعباب . قال:

لَمْ يَكُ يَنَادُ فَاَمْسَى أَنَادَا

ومنه رجل أيد ، أي: قوي . وتأيد الشيء تقوى، قال الشاعر:

إِذَا الْقَوْسُ وَتَرَّهَا أَيْدٌ رَمَى فَاصَابَ الْكُلَى وَالذُّوَا

يقول: إذا الله وتر القوس التي في السحاب رمى كلى الإبل وأسمنها بالشحم . يعني من النبات الذي يكون من المطر . ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك: أي: تواب . وعن غيره: أنه كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله استغفر منه؛ كما قال النبي ﷺ: «إني لاستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة» (٢) . ويقال: أب يؤوب إذا رجع؛ كما قال:

وَكُلُّ ذِي غِيْبَةٍ يُوُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُوُوبُ

فكان داود رجاعا إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به .

(١) متفق عليه: البخاري (١١٣١) في التهجد ، ومسلم (١١٥٩) في الصيام ، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما .

(٢) صحيح : أصله عند مسلم في الذكر والدعاء (٢/ ٢٧٠ - ٤١ ، ٤٢) ، عن الأغر المزني - رضي الله عنه .

﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ ﴾ ﴿ يُسَبِّحُنَ ﴾ في موضع نصب على الجبال. ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسييح الجبال معه. قال مقاتل: كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسييح الجبال. وقال ابن عباس: ﴿ يُسَبِّحُنَ ﴾ يصلين (١). وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه. وقال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دوي حسن، وما تصغي لحسنه الطير وتصوت معه، فهذا تسييح الجبال والطيور. وقيل: سخرها الله عز وجل لتسير معه فذلك تسييحها؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين. وقد مضى القول في هذا في «سبأ» (٢)، وفي «سبحان» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَنْتَ أَتَقْفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] وأن ذلك تسييح مقال على الصحيح من الأقوال. والله أعلم.

﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ الإشراق أيضا ابيضاض الشمس بعد طلوعها. يقال: شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. فكان داود يسبح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها.

الثانية: روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمر بهذه الآية: ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ولا أدري ما هي، حتى حدثني أم هانئ أن رسول الله ﷺ دخل عليها، فدعا بوضوء فتوضأ، ثم صلى صلاة الضحى، وقال: «يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق» (٣). وقال عكرمة: قال ابن عباس: كان في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في القرآن: ﴿ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾. قال عكرمة: وكان ابن عباس لا يصلي صلاة الضحى ثم صلاها بعد (٤). وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إني أجد في كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس هي صلاة الأوابين. فقال ابن عباس: وأنا أوجدك في القرآن؛ ذلك في قصة داود ﴿ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (٥).

الثالثة: صلاة الضحى نافلة مستحبة، وهي في الغداة بإزاء العصر في العشي، لا ينبغي أن تصلى حتى تبيض الشمس طالعة؛ ويرتفع كدرها؛ وتشرق بنورها؛ كما لا تصلى العصر إذا اصفرت الشمس. وفي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الأوابين حين ترمض الفصال» (٦) الفصال والفصلان جمع فضيل، وهو الذي يفطم من الرضاعة من الإبل. والرمضاء شدة

(١) سبق ذلك.

(٢) عند الآية (١٠).

(٣) ضعيف الإسناد وله أصل في الصحيح: الهيثمي (٢/ ٢٣٨) في المجمع، وعزاه للطبراني في الكبير وقال: فيه حجاج بن نصير صعه ابن المدني، وجماعة ووثقه ابن معين، ورواه، ومن رواية أبي بكر الهذلي سند ضعيف، كما في المجمع (٧/ ٩٩).

قلت: وله مخارج أخرى غير الصحيح تذل على أن له أصلاً، والله أعلم، وصححه الحاكم (٤/ ٣٥) مرفوعاً من طريق آخر.

(٤) ذكره السيوطي (٥/ ٥٦١) في الدر المنثور وعزاه لابن مردويه، عن عكرمة.

(٥) لم أقف عليه فيما بين يدي من مصادر.

(٦) صحيح: مسلم (٧٤٨/ ١٤٣، ١٤٤) في صلاة المسافرين وقصرها.

الحر في الأرض. وخص الفصال هنا بالذكر؛ لأنها هي التي ترمض قبل انتهاء شدة الحر التي ترمض بها أمهاتها لقلّة جلدها، وذلك يكون في الضحى أو بعده بقليل، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي. ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك استعجالاً، لأجل شغله فيخسر عمله؛ لأنه يصلّيها في الوقت المنهي عنه ويأتي بعمل هو عليه لا له.

الرابعة: روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الضحى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصرًا من ذهب في الجنة» قال: حديث غريب (١). وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تهليل صدقة، وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى» (٢). وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على شفعة الضحى؛ غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر» (٣). وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر» لفظ البخاري. وقال مسلم: «وركعتي الضحى» وخرجه من حديث أبي الدرداء كما خرجه البخاري من حديث أبي هريرة (٤). وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة. والله أعلم. وأصل السلامى - بضم السين - عظام الأصابع والأكف والأرجل، ثم استعمل في سائر عظام الجسد ومفاصله. وروى من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس، أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر عدت تلك الستين والثلاثمائة سلامى، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار» قال أبو توبة: وربما قال: «يمسي» كذا خرجه مسلم (٥). وقوله: «ويجزي من ذلك ركعتان» أي: يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان. وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التي عليه في الأصل. والله أعلم.

﴿ وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ ﴿٦﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَرَوَّاءَاتِنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَلَ الْخِطَابِ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً ﴾ معطوف على الجبال. قال الفراء: ولو قرئ: ﴿ وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً ﴾ لجاز؛ لأنه لم يظهر الفعل. قال ابن عباس: كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه (٦). فاجتماعها إليه حشرها. فالعنى: وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح الله

(١) غريب: الترمذي (٤٧٣) في الصلاة، وابن ماجه (١٣٨٠) في إقامة الصلاة، وضعفه الألباني هناك.

(٢) صحيح: مسلم (٧٢٠) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) ضعيف: الترمذي (٤٧٦) في الصلاة، وابن ماجه (١٣٨٢) في إقامة الصلاة، وضعفه الألباني هناك.

(٤) متفق عليه: البخاري (١١٧٨) في التهجد، ومسلم (٧٢١) في صلاة المسافرين وقصرها.

وحديث أبي الدرداء عند مسلم (٧٢٢/٨٦) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٥) صحيح: مسلم (١٠٠٧) في الزكاة.

(٦) سبق ذلك في سورة الأنبياء.

معه. وقيل: أي: وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه. أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور. ﴿كُلُّ لَهْءٍ أَيْ: لِدَاوُدَ ﴿أَوَّابٌ﴾ أَيْ: مُطِيعٌ؛ أَيْ: تَأْتِيهِ وَتَسْبِحُ مَعَهُ. وَقِيلَ: الْهَاءُ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أَيْ: قُوَيْنَاهُ حَتَّى ثَبَتَ. قِيلَ: بِالْهَيْبَةِ وَالْقَاءُ الرَّعْبُ مِنْهُ فِي الْقُلُوبِ. وَقِيلَ: بِكَثْرَةِ الْجُنُودِ. وَقِيلَ: بِالتَّأْيِيدِ وَالنَّصْرِ. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ. فَلَا يَنْفَعُ الْجَيْشَ الْكَثِيرَ التَّفَاوَهُ عَلَى غَيْرِ مَنْصُورٍ وَغَيْرِ مُعَانَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ دَاوُدُ أَشَدَّ مَلُوكِ الْأَرْضِ سُلْطَانًا. كَانَ يَحْرُسُ مَحْرَابَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ نِيفٌ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ رَجُلٍ، فَإِذَا أَصْبَحَ قِيلَ: ارْجِعُوا فَقَدْ رَضِيَ عَنْكُمْ نَبِيُّ اللَّهِ (١). وَالْمَلِكُ عِبَارَةٌ عَنِ كَثْرَةِ الْمَلِكِ، فَقَدْ يَكُونُ لِلرَّجُلِ مَلِكٌ وَلَكِنْ لَا يَكُونُ مَلِكًا حَتَّى يَكْثُرَ ذَلِكَ؛ فَلَوْ مَلَكَ الرَّجُلُ دَارًا وَامْرَأَةً لَمْ يَكُنْ مَلِكًا حَتَّى يَكُونَ لَهُ خَادِمٌ يَكْفِيهِ مَوْئِنَةُ التَّصَرُّفِ فِي الْمَنَافِعِ الَّتِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهَا لِضَرُورَتِهِ الْأَدْمِيَّةِ. وَقَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى فِي «بِرَاءة» (٢) وَحَقِيقَةُ الْمَلِكِ فِي «النَّمْلِ» مُسْتَوْفَى.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة (٣)؛ قاله السدي. مجاهد: العدل (٤). أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى (٥). قتادة: السنة (٦). شريح: العلم (٧) والفقه: ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السلمي وقاتدة: يعني الفصل في القضاء (٨). وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل (٩). وقال ابن عباس: بيان الكلام (١٠). علي بن أبي طالب: هو البيعة على المدعي واليمين على من أنكر (١١). وقاله شريح والشعبي وقاتدة أيضا. وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضا هو قوله أما بعد (١٢)، وهو أول من تكلم بها. وقيل: ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ البيان الفاصل بين الحق والباطل. وقيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل. والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وقول علي رضي الله عنه يجمعه؛ لأن مدار الحكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.

(١) وجدته عند البغوي (٧/ ٧٦) في تفسيره بغير إسناد.

(٢) عند الآية (٦٠).

(٣) صحيح إلى السدي: الطبري (٢٣/ ١٤٢) في تفسيره.

(٤) ضعيف إلى مجاهد: السابق (٢٣/ ١٤٣) بنحوه وفي الإسناد: ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف، واختاره الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٤٣).

(٥) فتح القدير (٦/ ٢٣٤) للشوكاني بلا إسناد.

(٦) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٣/ ١٤٣) في تفسيره.

(٧) حسن بمجموع طرقه: الطبري (٢٣/ ١٤٣) في تفسيره.

(٨) صحيح إلى قتادة: انظر: الطبري (٢٣/ ١٤٣) في تفسيره.

(٩) ذكره البغوي (٧/ ٧٥)، والشوكاني (٦/ ٢٣٤) بغير سند في فتح القدير.

(١٠) انظر فتح القدير (٦/ ٢٣٤) للشوكاني.

(١١) انظر: البغوي (٧/ ٧٥) في تفسيره، قلت: واختار الطبري أن فصل الخطاب هو: الفصل في الكلام والحكم سوياً.

(١٢) هكذا عند الطبري (٢٣/ ١٤٤) في تفسيره بسند ضعيف، ففيه جابر بن نوح، وهو الحماني: ضعفه ابن حبان وغيره.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي^(١): فأما علم القضاء فلعمري إلهك إنه لنوع من العلم مجرد، وفصل منه مؤكد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام؛ ففي الحديث: «أقضاكم عليٌّ، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»^(٢). وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال، عارفا بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء. يروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن حفر قوم زبية^(٣) للأسد؛ فوقع فيها الأسد؛ وازدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر، وتعلق الآخر بآخر، حتى صاروا أربعة، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال؛ قال فأتيتهم فقلت: أنتقلون مائتي رجل من أجل أربعة إناس! تعالوا أقض بينكم بقضاء؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحق بالقضاء. فجعل للأول ربع الدية، وجعل للثاني ثلث الدية، وجعل للثالث نصف الدية، وجعل للرابع الدية، وجعل للديات على من حفر الزبية على قبائل الأربعة؛ فسخط بعضهم ورضي بعضهم، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فقصوا عليه القصة؛ فقال: «أنا أقضي بينكم» فقال قائل: إن عليا قد قضى بيننا. فأخبروه بما قضى علي؛ فقال رسول الله ﷺ: «القضاء كما قضى علي» في رواية: فأمضى رسول الله ﷺ قضاء علي^(٤).

وكذلك يروى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال: إن ابن أبي ليلى - وكان قاضيا بالكوفة - جلد امرأة مجنونة قالت لرجل: يا بن الزانين حدين في المسجد وهي قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه. قال ابن العربي: وهذا الذي قال أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالرؤية إلا العلماء.

فأما قضية علي فلا يدركها الشادي، ولا يلحقها بعد التمرن في الأحكام إلا العاكف التماذي. وتحقيقها: أن هؤلاء الأربعة المقتولين خطأ بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها، فلمهم الديات على من حضر على وجه الخطأ، بيد أن الأول مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثة بالمجازبة، فله الدية بما قتل، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثاني فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالاثنتين اللذين قتلهما بالمجازبة. وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحدا بالمجازبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجاري فيه. وهذا من بديع الاستنباط. وأما

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٦٢٧) لابن العربي المالكي .

(٢) ضعيف بتمامه ، والشطر الثاني منه سبق تصحيحه : كما عند الترمذي (٣٧٩١) في المناقب ، وبتمامه عند أبي يعلى (٥٧٦٣) بنحوه ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما .

(٣) زبية : حفرة تحفر للأسد، والصيد ، ويُغطى رأسها بما يسترها ليقع فيها - كما في النهاية (٢/ ٢٩٥) لابن الأثير .

(٤) كذا عند ابن العربي المالكي (٤/ ١٦٢٧ ، ١٦٢٨) ، ورواه أبو المحاسن (٢٠/ ١١٣) في مختصر المختصر دون الجزء المرفوع منه ، وذكره البيهقي (٨/ ١١١) في سننه .

قلت : ورواه الطيالسي (١١٣) (١/ ١٨) في مسنده من طريق سماك ، عن خالد بن عرعرة ، وفي خالد جهالة ، لكنه توبع كما في رواية البيهقي .

فبالجملة : القصة ثابتة ، والاختلاف في الجزء المرفوع منها ، والله أعلم .

أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعاني المتعلقة فرأها ستة: الأول: أن المجنون لا حد عليه؛ لأن الجنون يسقط التكليف. وهذا إذا كان القذف في حالة الجنون، وأما إذا كان يجن مرة ويفيق أخرى، فإنه يجد بالقذف في حالة إفاقته. والثاني: قولها: يا بن الزانيين فجلدها حدين لكل أب حد، فإنما خطاه أبو حنيفة على مذهبه في أن حد القذف يتداخل، لأنه عنده حق لله تعالى كحد الخمر والزنا، وأما الشافعي ومالك فإنهما يريان أن الحد بالقذف حق للآدمي، فيتعدد بتعدد المذوف. الثالث: أنه جلد بغير مطالبة المذوف، ولا تجوز إقامة حد القذف بإجماع من الأمة إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول: إنه حق لله تعالى، ومن يقول: إنه حق الآدمي. وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حق للآدمي؛ إذ لو كان حقاً لله لما توقف على المطالبة كحد الزنا. الرابع: أنه والى بين الحدين، ومن وجب عليه حدان لم يوال بينهما، بل يحد لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب، أو يستبل المضروب ثم يقام عليه الحد الآخر. الخامس: أنه حداه قائمة، ولا تحد المرأة إلا جالسة مستورة، قال بعض الناس: في زنبيل. السادس: أنه أقام الحد في المسجد ولا تقام الحلود فيه إجماعاً. وفي القضاء في المسجد والتعزير فيه خلاف. قال القاضي^(١): فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء، الذي وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات في الحديث المروي «أفضاكم علي». وأما من قال: إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم، ولمحمد ﷺ دون العرب؛ وقد بين هذا بقوله: «وأوتيت جوامع الكلم»^(٢). وأما من قال: إنه قوله: أما بعد؛ فكان النبي ﷺ يقول في خطبته: «أما بعد»^(٣). ويروى أن أول من قالها في الجاهلية سبحانه بن وائل، وهو أول من آمن بالبعث، وأول من توكل على عصا، وعمر مائة وثمانين سنة. ولو صح أن داود عليه السلام قالها، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم، وإنما كان بلسانه. والله أعلم.

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿١٠﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَتَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١١﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَإِي نَعْجَةً وَاحِدَةً قَالِ أَكْفَلْنَاهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٢﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نَعْجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٣﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْمَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ «الخصم» يقع على الواحد والاثنتين

(١) ذكره القاضي ابن العربي المالكي كما في أحكام القرآن له (٤/ ١٦٢٩).

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) صحيح: كذا عند البخاري (٩٢٧) في الجمعة.

والجماعة؛ لأن أصله المصدر. قال الشاعر:

وَخَصِمَ غَضَابٌ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ
كَنْفُضِ الْبَرَادِينِ الْعَرَابِ الْمُخَالِيَا

النحاس: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به ها هنا ملكان. وقيل: ﴿تَسَوَّرُوا﴾ وإن كان اثنين حملا على الخصم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعا له، مثل الركب والصحب. تقديره للثنتين ذواتهما خصم وللجماعة ذوو خصم. ومعنى: ﴿تَسَوَّرُوا الْمُحْرَابَ﴾ أتوه من أعلى سورة. يقال: تسور الحائط: تسلقه، والسور: حائط المدينة وهو بغير همز، وكذلك السور جمع سورة مثل بسرة وبسر وهي كل منزلة من البناء. ومنه سورة القرآن؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى. وقد مضى في مقدمة الكتاب بيان هذا. وقول النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب

يريد شرفا ومنزلة. فأما السور بالهمز فهو بقية الطعام في الإناء. ابن العربي: والسور الوليمة بالفارسي. وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «إن جابرا قد صنع لكم سورا فحيهلا بكم»^(١). والمحراب هنا الغرفة؛ لأنهم تسوروا عليه فيها؛ قاله يحيى بن سلام. وقال أبو عبيدة: إنه صدر المجلس، ومنه محراب المسجد. وقد مضى القول فيه في غير موضع. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ﴾ جاءت ﴿إِذْ﴾ مرتين؛ لأنهما فعلان. وزعم الفراء: أن إحداهما بمعنى لما. وقول آخر أن تكون الثانية مع ما بعدها تبيينا لما قبلها. قيل: إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقاش. وقيل: ملكين؛ قاله جماعة. وعينهما جماعة فقالوا: إنهما جبريل وميكائيل. وقيل: ملكين في صورة إنسيين بعثهما الله إليه في يوم عبادته. فمنعهما الحرس الدخول، فتسوروا المحراب عليه، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي: علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثوري وغيره. وسبب ذلك ما حكاه ابن عباس: أن داود عليه السلام حدث نفسه إن ابتلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حذرَكَ. فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يدرج بين يديه. فهم أن يتناولوه بيده، فاستدرج حتى وقع في كوة المحراب، فدنا منه ليأخذه فطار، فاطلع لبيصره فأشرف على امرأة تغتسل، فلما رآته غطت جسدها بشعرها. قال السدي: فوقعت في قلبه. قال ابن عباس: وكان زوجها غازيا في سبيل الله وهو أوريا ابن حنان، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حملة التابوت، وكان حملة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا، فقدمه فيهم فقتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدت غلاما أن يكون الخليفة بعده، وكتبت عليه بذلك كتابا، وأشهدت عليه خمسين رجلا من بني إسرائيل، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشب، وتسور الملكان وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه. ذكره الماوردي وغيره. ولا يصح. قال ابن العربي: وهو أمثل ما روي في ذلك^(٢).

(١) صحيح: البخاري (٤١٠١) في المغازي، عن جابر - رضي الله عنه.

(٢) اتبه - يرحمك الله - فكل ما سيرويه المصنف هنا باطل ونسبته إلى النبي ﷺ أو إلى داود عليه السلام كذب وزور، كنسبة الذئب إلى أكل يوسف عليه السلام، وقد تظاهرت كلمات المحققين من العلماء الأثبات الثقات فتسارعوا لبيبنوا ضعف هذه الروايات المختلفة الموضوعة المكذوبة:

قلت: ورواه مرفوعاً بمعناه الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول» عن يزيد الرقاشي، سمع أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهم بها قطع على بني إسرائيل بعثاً وأوصى صاحب البعث فقال: إذا حضر العدو قرب فلاناً وسماه، قال: فقربه بين يدي التابوت - قال - وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يستنصر به فمن قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتله فقدم فقتل زوج المرأة ونزل الملكان على داود فقصا عليه القصة». وقال سعيد عن قتادة: كتب إلى زوجها وذلك في حصار عمان مدينة بلبقاء أن يأخذوا بحلقة الباب، وفيه الموت الأحمر، فتقدم فقتل. وقال الثعلبي: قال قوم من العلماء: إنما امتحن الله داود بالخطيئة؛ لأنه تمنى يوماً على ربه منزلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحو ما امتحنهم، ويعطيه نحو ما أعطاهم. وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله. وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فقال: يا رب إن الخير كله قد ذهب به آبائي، فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ابتلوا ببلايا لم يتبل بها غيرهم فصبروا عليها؛ ابتلي إبراهيم بنمرود وبالنار وبذبح ابنه، وابتلي إسحاق بالذبح، وابتلي يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تتبل أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فابتلني بمثل ما ابتليتهم، وأعطني مثل ما أعطيتهم، فأوحى الله تعالى إليه: إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة. فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه، وجعل يصلي ويقرأ الزبور، فبينما هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب، فيها من

= فقال القاضي عياض (١٥٨ / ٢) في الشفا :

لا تلتفت إلى ما سطره الإخباريون (المؤرخون) من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين ، ولم ينص الله تعالى على كل شيء من ذلك في كتاب ، ولا ورد في حديث صحيح ، والذي نص عليه في قصة داود ﴿وَرَوَى دَاوُدُ أَمَّا فَتَاهُ﴾ ، وليس في قصة داود خبر ثابت . ١ . هـ .

وقال ابن كثير (٥١ / ٧) في تفسيره وقد ذكر المفسرون ما هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم ينب فيها ، عن المعصوم ﷺ حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً - قصد به الحديث التالي : لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي ، عن أنس - رضي الله عنه - وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة . ١ . هـ .

وضعف أبو شعبة القصة كما في الإسرائيليات والموضوعات (ص ٣٧٢) .

قلت : وفي الروايات :

- يزيد الرقاشي : متروك كما قال النسائي ، وقال ابن حبان : كان من خيار عباد الله ، من البكائين بالليل ، غفل عن حفظ الحديث شغلاً بالعبادة ، حتى كان يقلب كلام الحسن البصري يجعله عن أنس عن النبي ﷺ فلا يحل الرواية عنه إلا على جهة التعجب . تخریب التهذيب (٢ / ٣٦١) وفيها الكلبي ، وكعب ، وغيرهم عن رواية الإسرائيليات والأكاذيب .

فما الصحيح إذن : ما قاله القاضي عياض ، والسمرقندي بأن داود - عليه السلام ، لم يسمع لقول الخصم الثاني بعد أن سمع من الأول ، والله أعلم .

قلت : فلا تلتفت إلى ما سطره المصنف هنا : فقد حكم عليه بالضعف ، وعدم الصحة ، وإنما ساقه ليبين ضعفه وكذبه لا أكثر ، فهل يعقل زنى نبي الله داود أو أي نبي آخر ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم !!

كل لون حسن، فوقف بين رجليه، فمد يده ليأخذها فيدفعها لابن له صغير، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها، فامتد إليها ليأخذها فتحتت، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة، فذهب ليأخذها فطارت ونظر داود يرتفع في إثرها ليبعث إليها من يأخذها، فنظر امرأة في بستان على شط بركة تغتسل؛ قاله الكلبي. وقال السدي: تغتسل عريانة على سطح لها؛ فرأى أجمل النساء خلقاً، فأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى بدنهما، فزاده إعجاباً بها. وكان زوجها أوريا بن حنان، في غزوة مع أيوب بن سوريا ابن أخت داود، فكتب داود إلى أيوب أن ابعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا، وقدمه قبل الثابوت، وكان من قدم قبل الثابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد. فقدمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك. قال الكلبي: وكان أوريا سيف الله في أرضه في زمان داود، وكان إذا ضرب ضربة وكبر، كبر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله، وكبرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك إلى العرش، فتكبر ملائكة العرش بتكبيره. قال: وكان سيوف الله ثلاثة: كالب بن يوفنا في زمن موسى، وأوريا في زمن داود، وحمزة بن عبد المطلب في زمن رسول الله ﷺ. فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه: أن ابعثه في بعث كذا وقدمه قبل الثابوت؛ ففتح الله عليه، فقتل في الثالث شهيداً. فتزوج داود تلك المرأة حين انقضت عدتها. فهي أم سليمان بن داود. وقيل: سبب امتحان داود عليه السلام: أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة شيء. قال الحسن: إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء: جزء لنسائه، وجزءاً للعبادة، وجزءاً لبني إسرائيل يذكرونه ويذكروهم ويكفونهم ويكفونهم، ويوما للقضاء. فتذاكروا: هل يمر على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك؛ فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكب على قراءة الزبور، فوقعت حمامة من ذهب بين يديه. وذكر نحو ما تقدم.

الثانية: قال علماؤنا: وفي هذا دليل على أنه ليس على الحاكم أن يتنصب للناس كل يوم، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه وإن كان مشغولاً بالعبادة. وقد مضى هذا المعنى في «النساء». وحكم كعب بذلك في زمن عمر بمحضرة رضي الله عنهما. وقد قال عليه السلام لعبد الله بن عمر: «إن لزوجك عليك حقاً...» الحديث (١). وقال الحسن أيضاً ومجاهد: إن داود عليه السلام قال لبني إسرائيل حين استخلف: والله لأعدلن بينكم، ولم يستثن فابتلي بهذا. وقال أبو بكر الوراق (٢): كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال: هل في الأرض أحد يعمل كعملي؟ فأرسل الله إليه جبريل؛ فقال: إن الله تعالى يقول لك: أعجبت بعبادتك، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب، فإن أعجبت ثانية وكلتك إلى نفسك. قال: يا رب كلني إلى نفسي سنة. قال: إن ذلك لكثير. قال: فشهرًا. قال: إن ذلك لكثير. قال: فيوما. قال: إن ذلك لكثير. قال: يا رب فكلني إلى نفسي ساعة. قال: فشأنك بها. فوكل الأحراس، ولبس الصوف، ودخل المخراب، ووضع الزبور بين يديه؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائر بين يديه، فكان من أمر المرأة ما كان. وقال سفيان

(١) متفق عليه: البخاري (١٩٧٦) في الصوم، ومسلم (١١٥٩) في الصيام.

(٢) وهذا أيضاً من الكذب.

الثوري: قال داود ذات يوم: يا رب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم. فأوحى الله إليه: يا داود منك ذلك أو مني؟ وعزتي لأكلتك إلى نفسك. قال: يا رب اعف عني. قال: أكلك إلى نفسك سنة. قال: لا بعزتك. قال: فشهرًا. قال: لا بعزتك. قال: فأسبوعًا. قال: لا بعزتك. قال: فيوما. قال: لا بعزتك. قال: فساعة. قال: لا بعزتك. قال: فلحظة. فقال له الشيطان: وما قدر لحظة. قال: كلني إلى نفسي لحظة. فركله الله إلى نفسه لحظة. وقيل له: هي في يوم كذا في وقت كذا. فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة، ووكّل الأحراس حول مكانه. قيل: أربعة آلاف. وقيل: ثلاثين ألفًا أو ثلاثة وثلاثين ألفًا. وخلا بعبادة ربه، ونشر الزبور بين يديه، فجاءت الحمامة فوقعت له، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان. وأرسل الله عز وجل إليه الملكين بعد ولادة سليمان، وضربا له المثل بالنعاج؛ فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخر ساجدا أربعين ليلة على ما يأتي.

الثالثة: قوله تعالى ﴿فَفَرِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهما أتياه ليلا في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: لدخولهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب. قال ابن العربي: وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يرتقي إليه آمي بحيلة إلا أن يقيم إليه أياما أو أشهرًا بحسب طاقته، مع أعوان يكثُر عددهم، وآلات جمة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبرا عن ذلك ﴿تَسُورُوا الْمِحْرَابَ﴾ إذ لا يقال تسور المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازًا؛ وإذا شاهدت الكوة التي يقال: إنه دخل منها الخصمان علمت قطعا أنهما ملكان؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا علوي. قال الثعلبي: وقد قيل: كان المتسوران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. فلما قضى داود بينهما بقضية

قال له ملك من الملائكة: فهلا قضيت بذلك على نفسك يا داود. قال الثعلبي: والأول أحسن أنهما كانا ملكين نهما داود على ما فعل.

قلت: وعلى هذا أكثر أهل التأويل. فإن قيل: كيف يجوز أن يقول الملكان: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وذلك كذب والملائكة عن مثله منزهون. فالجواب عنه أنه لا بد في الكلام من تقدير؛ فكانت قلنا: قدرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق، وعلى ذلك يحمل قولهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على ما فعل؛ والله أعلم.

الرابعة: إن قيل: لم فرع داود وهو نبي، وقد قويت نفسه بالنبوة، واطمأنت بالوحي، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات.

وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟ قيل له: ذلك سبيل الأنبياء قبله، لم يأمنوا القتل والأذى ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهارون عليهما السلام كيف قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَى﴾ [طه: ٤٥] فقال الله عز وجل: ﴿لَا تَخَافَا﴾ [طه: ٤٦]. وقالت الرسل للوط: لا تخف ﴿إِنَّا

رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴿٨١﴾ [هود: ٨١] وكذا قال الملكان هنا: ﴿لَا تَخَفْ﴾. قال محمد بن إسحاق: بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو في محرابه - مثلاً ضربه الله ولأوريا فرأهما واقفين على رأسه؛ فقال: ما أدخلكما علي؟ قالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ فجنناك لتقضي بيننا.

الحامسة: قال ابن العربي: فإن قيل: كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما، وهلا أدبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه: الأول: أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام وقد كان ذلك في ابتداء شرعنا مهملاً في هذه الأحكام، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان. الثاني: أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب، لاحتمل أن يكون الفزع الطارئ عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له. الثالث: أنه أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا له حتى يعلم آتحر الأمر منه، ويرى هل يحتمل التسحيم فيه بغير إذن أم لا؟ وهل يقترن بذلك عذر لهما أم لا يكون لهما عذر فيه؟ فكان من آخر الحال ما انكشف أنه بلاء ومحنة، ومثل ضربه الله في القصة، وأدب وفع على دعوى العصمة. الرابع: أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد.

قلت: وقول خامس ذكره القشيري؛ وهو أنهما قالوا: لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب، توصلنا إلى الدخول بالتسور، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا. فقبل داود عذرهم، وأصغى إلى قولهم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿خَصْمَانِ﴾ إن قيل: كيف قال: ﴿خَصْمَانِ﴾ وقبل هذا: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ فقيل: لأن الاثنين جمع؛ قال الخليل: كما تقول: نحن فعلنا إذا كتتما اثنين. وقال الكسائي: جمع لما كان خيراً، فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة، خبر الاثنين عن أنفسهما فقلا خصمان. وقال الزجاج: المعنى نحن خصمان. وقال غيره: القول محذوف؛ أي: يقول: ﴿خَصْمَانِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ قال الكسائي: ولو كان بغي بعضهما على بعض، لجاز. الماوردي: وكانا ملكين، ولم يكونا خصمين ولا باغيين، ولا يتأتى منهما كذب؛ وتقدير كلامهما ما تقول: إن أتاك خصمان قالوا: بغي بعضنا على بعض. وقيل: أي: نحن فريقان من الخصوم بغي بعضنا على بعض. وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين اثنين ومع كل واحد جمع. ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة مع كل واحد من الفريق الآخر، فحضروا الخصومات ولكن ابتداء منهم اثنان، فعرف داود بذكر النكاح القصة. وأغنى ذلك عن التعرض للخصومات الأخر. والبغي: التعدي والخروج عن الواجب. يقال: بغي الجرح: إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تجر؛ قاله السدي. وحكى أبو عبيد: شططت عليه وأشططت أي: جرت. وفي حديث تميم الداري: «إنك لشاطي» أي: جائر علي في الحكم. وقال قتادة: لا تمل. الأخصف: لا تسرف. وقيل: لا تفرط. والمعنى متقارب. والأصل فيه البعد من شطت الدار، أي: بعدت؛ شطت الدار تشط وتشط شطاً وشطوطاً: بعدت. وأشط في القضية أي: جار، وأشط في السوم واشتط؛ أي: أبعد، وأشطوا في طليبي، أي: أمعنوا. قال أبو عمرو: الشطط مجاوزة القدر في كل شيء. وفي الحديث: «لها مهر مثلها لا وكس ولا

شَطَطٌ^(١) أي: لا نقصان ولا زيادة. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي: جوراً من القول وبعداً عن الحق. ﴿وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي أرشدنا إلى قصد السبيل.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي: قال الملك الذي تكلم عن أوريا ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ أي: على ديني، وأشار إلى المدعى عليه. وقيل: أخي، أي: صاحبي. ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ وقرأ الحسن: «تسع وتسعون نعجة» بفتح التاء فيهما وهي لغة شاذة، وهي الصحيحة من قراءة الحسن؛ قاله النحاس. والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة؛ لما هي عليه من السكون والمعجزة وضعف الجانب^(٢). وقد يكنى عنها بالبقرة والحجرة والناقعة، لأن الكل مركوب. قال ابن عون:

أنا أبوهن ثلاثُ هنَّه	رابعةٌ في البيتِ صُغْرَاهِنَّ
ونعجتي خمساً تُوقِيهنَّه	ألا فتىً سمحٌ يُغْذِيهنَّه
طِي النَّقَا فِي الْجُوعِ يَطْوِيهنَّه	ويُلُ الرِّغِيْفِ وَيَلُّهُ مِنْهنَّه

وقال عنترة:

يا شاةً ما قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ	حَرُمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمْ
فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقَلْتُ لَهَا أَذْهَبِي	فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي وَأَعْلَمْ
قالت رأيت من الأعاذي غرة	والشاةُ ممكنةٌ لمن هو مريم
فكأنا التفتت بجيد جدابة	رشاً من الغزلان حرّ أرثم

وقال آخر:

فَرَمَيْتُ غَفْلَتَهُ عَيْنِهِ عَن شَاتِهِ	فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالَهَا
--	---

وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء. قال الحسين بن الفضل: هذا من الملكين تعريض وتبنيه كقولهم: ضرب زيد عمراً، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال: نحن خصمان هذه حالنا. قال أبو جعفر النحاس: وأحسن ما قيل في هذا: إن المعنى: يقول خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسألة؛ كما تقول: رجل يقول لامرأته كذا، ما يجب عليه؟

قلت: وقد تأول المزني صاحب الشافعي هذه الآية، وقوله ﷺ في حديث ابن شهاب الذي خرجه الموطأ وغيره: «هو لك يا عبد بن زمة»^(٣) على نحو هذا؛ قال المزني: يحتمل هذا الحديث عندي - والله أعلم - أن يكون النبي ﷺ أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحكم أن هذا يكون إذا ادعى صاحب فراش وصاحب زنى، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد، ولا على زمة قول ابنه: إنه ولد زنى؛ لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره. وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثل ذلك في قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه ففرغ منهم، قالوا: لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة، ولكنهم كلموه على المسألة ليعرف بها ما أرادوا تعريفه. فيحتمل أن يكون النبي ﷺ حكّم في هذه القصة على

(١) صحيح: قطعة من حديث مسلم (١٥٠١/٥٠) في الأيمان، عن ابن عمر - رضي الله عنهما -

(٢) وهذا وإن صح فلا يقال به.

(٣) متفق عليه: وقد سبق في الصحيحين.

المسألة، وإن لم يكن أحد يؤنسني على هذا التأويل في الحديث؛ فإنه عندي صحيح. والله أعلم.

التاسعة: قال النحاس: وفي قراءة ابن مسعود: «إن هذا أخي كان له تسع وتسعون نعجة أنثى» و«كان» هنا مثل قوله عز وجل: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» [النساء: ٩٦] فأما قوله: «أنثى» فهو تأكيد، كما يقال: هو رجل ذكر وهو تأكيد. وقيل: لما كان يقال: هذه مائة نعجة، وإن كان فيها من الذكور شيء يسير، جاز أن يقال: أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها. وفي التفسير: له تسع وتسعون امرأة. قال ابن العربي: إن كان جميعهن أحرارا فذلك شرعه، وإن كن إماء فذلك شرعنا. والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصورا بعدد، وإنما الحصر في شريعة محمد ﷺ، لضعف الأبدان وقلة الأعمار. وقال القشيري: ويجوز أن يقال: لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول: لو جئتني مائة مرة لم أفض حاجتك، أي: مرارا كثيرة. قال ابن العربي: قال بعض المفسرين: لم يكن لداود مائة امرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلا؛ المعنى: هذا غني عن الزوجة وأنا مفتقر إليها. وهذا فاسد من وجهين: أحدهما: أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له، ولا دليل يدل على أن شرع من قبلنا كان مقصورا من النساء على ما في شرعنا. الثاني: أنه روى البخاري وغيره أن سليمان قال: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل امرأة غلاما يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله»^(١) وهذا نص.

العاشرة: قوله تعالى: «وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ» أي: امرأة واحدة «فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا» أي: أنزل لي عنها حتى أكفلها. وقال ابن عباس: أعطنيها^(٢). وعنه: تحول لي عنها^(٣). وقاله ابن مسعود^(٤). وقال أبو العالية: ضمها إلي حتى أكفلها^(٥). وقال ابن كيسان: اجعلها كفلي ونصيبي. «وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ» أي غلبني. قال الضحاك: إن تكلم كان أفصح مني، وإن حارب كان أبطش مني^(٦). يقال: عزه يعزه بضم العين في المستقبل عزا: غلبه. وفي المثل: من عَزَّ بَزَّ؛ أي: من غلب سلب. والاسم العزة وهي القوة والغلبة. قال الشاعر:

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكُ فَبَاتَتْ تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير: «وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ» أي: غلبني؛ من المعازة وهي المغالبة؛ عازه، أي: غالبه. قال ابن العربي: واختلف في سبب الغلبة؛ فقيل: معناه غلبني ببيانه. وقيل: غلبني بسلطانه؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه. كان ببلادنا أمير يقال له: سير بن أبي بكر فكلّمته في أن يسأل لي رجلا حاجة، فقال لي: أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غضب لها. فقلت: أما إذا كان عدلا فلا. فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته، كما عجب من جوابي

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) بل هو قول الحسن كما في النكت والعيون (٤٨٨/٣) للماوردي.

(٣) الماوردي (٤٨٨/٣) في النكت والعيون.

(٤) حسن: الطبري (١٤٧/٢٣) في تفسيره ورجاله ثقات.

(٥) انظر السابق دون عزو لأبي العالية.

(٦) رواه الطبري (١٤٧/٢٣)، (١٤٨) في تفسيره منقطعاً بينه وبين شيخه الحسين.

له واستغربه .

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ﴾ قال النحاس: فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظلمك من غير تثبت بيئته، ولا إقرار من الخصم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن. فهذا قول^(١). وسيأتي بيانه في المسألة بعد هذا، وهو حسن إن شاء الله تعالى.

وقال أبو جعفر النحاس: فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم؛ منهم عبد الله بن مسعود وابن عباس، فإنهم قالوا: ما زاد داود صلى الله على نبيينا وعليه على أن قال للرجل: انزل لي عن امرأتك^(٢). قال أبو جعفر: فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونسبه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي^(٣)، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم، ويلحقه فيه إثم عظيم. كذا قال: في كتاب «إعراب القرآن». وقال: في كتاب «معاني القرآن» له بمثله. قال رضي الله عنه: قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها. وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: ما زاد داود عليه السلام على أن قال ﴿أَكْفُلْنِيهَا﴾ أي: انزل لي عنها^(٤) وروى المنهال عن سعيد بن جبيرة قال: ما زاد داود ﷺ على أن قال: ﴿أَكْفُلْنِيهَا﴾ أي تحول لي عنها وضمها إلي^(٥). قال أبو جعفر: فهذا أجل ما روي في هذا، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق امرأته، كما يسأل الرجل الرجل أن يبيعه جاريته، فنبهه الله عز وجل على ذلك، وعاتبه لما كان نبيا وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزويد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجترار عليه. قال ابن العربي: وأما قولهم إنها لما أعجبت أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله فهذا باطل قطعاً؛ فإن داود ﷺ لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: انزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة؛ كانت في الأهل أو في المال. وقد قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله ﷺ بينهما: إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما؛ فقال له: بارك الله لك في أهلك. وما يجوز فعله ابتداءً يجوز طلبه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يروى هذا ويسند؟! وهلى من في نقله يعتمد، وليس يآثره عن الشقات الأثبات أحد.

أما أن في سورة «الأحزاب» نكتة تدل على أن داود قد صارت له المرأة زوجة، وذلك قوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨] يعني في أحد الأقوال: تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش؛ إلا أن تزويج زينب^(٦) كان من غير سؤال الزوج في فراق، بل أمره بالتمسك بزوجه، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها،

(١ - ٣) وهو ما نغبل إليه ، ورجاله ثقات كما عند الطبري(٢٣/١٤٨ ، ١٤٩) ، وعبد الرزاق (٢٥٩٠) في تفسيره ، و(٢٥٨٩) في تفسيره .

وانظر : الشفا (١٧٨/٢) للفاضي عياض .

(٤ ، ٥) هذا إما صحت قصة (أوريا) ولا تصح .

(٦) ولا يصح خبره كما ذكرناه في سورة الاحزاب عند الآية (٣٨) .

فكانت هذه المنقبة لمحمد ﷺ على داود مضافة إلى مناقبه العلية ﷺ. ولكن قد قيل: إن معنى: ﴿سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق. وقيل: أراد بقوله: ﴿سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]: أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصح الأقوال. وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة؛ وهذا نص القرآن. وروي أن سليمان كانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية؛ وربك أعلم.

وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الآية: ذكر المحققون الذين يرون تزوية الأنبياء عليهم السلام عن الكباثر، أن داود عليه السلام كان قد أدم على خطبة امرأة قد خطبها غيره، يقال: هو أوريا؛ فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه، وزاهدين في الخاطب الأول، ولم يكن بذلك داود عارفا، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك، من حيث أعجب بها إما وصفا أو مشاهدة على غير تعمد؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير، وذلك الخاطب لا امرأة له، فنبه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسور الملكين، وما أوردها من التمثيل على وجه التعريض؛ لكي يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمَتِكَ لِي نِعَاجِهِ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخصمين، وقيل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ابن العربي: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنما تقدير الكلام: أن أحد الخصمين ادعى والآخر سلم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى. وقد قال النبي ﷺ: «إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضى لأحدهما حتى تسمع من الآخر» (١). وقيل: إن داود لم يقض للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك. وقيل: تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك. والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه.

قلت: ذكر هذين الوجهين القشيري والماوردي وغيرهما. قال القشيري: وقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمَتِكَ﴾ من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعد اعترافه. وقد روي هذا وإن لم تثبت روايته، فهذا معلوم من قرائن الحال، أو أراد: لقد ظلمك إن كان الأمر على ما تقول، فسكته بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه. قال: ويحتمل أن يقال: كان من شرعهم التعويل على قول المدعي عند سكوت المدعى عليه، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول. وقال الحلبي أبو عبد الله في كتاب «منهاج الدين» له: ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت، أو كانت خافية فظهرت: السجود لله عز وجل. قال والأصل في ذلك قول عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وِلِيِّي﴾

(١) صحيح: قطعة من حديث رواه أحمد (١/ ٨٣، ٨٨، ١٣٦، ١٥٦) في المسند، وأبو داود (٣٥٧٧) في الأفضية، والترمذي (١٣٤٦) في الأحكام، والنسائي (٣١ - ٣٣) في الخصائص، وابن ماجه (٣٣١٠)، والطيالسي (٩٨) في مسنده، والحاكم (٤/ ٩٣) في المستدرک وصححه، ووافقه الذهبي.

نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ (٢٢) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَانَهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٤) ﴿٢٤﴾ . أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام:

أنه سمع قول المتظلم من الخصمين، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر، إنما حكى أنه ظلمه، فكان ظاهر ذلك أنه رأى في المتكلم مخائل الضعف والهزيمة، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول، ودعا ذلك إلى ألا يسأل الخصم؛ فقال له مستعجلاً: ﴿قَدْ ظَلَمَكَ﴾ مع إمكان أنه لو سأل له لكان يقول: كانت لي مائة نعجة ولا شيء لهذا، فسرق مني هذه النعجة، فلما وجدتها عنده قلت له ارددها، وما قلت له أكفلنيها، وعلم أنني مرافعه إليك، فجرني قبل أن أجره، وجاءك متظلمًا من قبل أن أحضره، لتظن أنه هو المحق وأني أنا الظالم. ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه في ذلك الوقت، وهي الفتنة التي ذكرناها، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فاستغفر ربه وخر راعيًا لله تعالى شكرًا على أن عصمه، بأن اقتصر على تظلم المشكوك، ولم يزد على ذلك شيئًا من انتهار أو ضرب أو غيرهما، مما يليق بمن تصور في القلب أنه ظالم، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه؛ فقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة، التي توخاه بها بعد المغفرة، أن خطيئته إنما كانت التقصير في الحكم، والمبادرة إلى تظلم من لم يثبت عنده ظلمه. ثم جاء عن ابن عباس أنه قال: سجدها داود شكرًا، وسجدها النبي ﷺ اتباعًا (١)، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم. ﴿بِسُؤَالِ نَعَجِكَ﴾ أي: بسؤاله نعتك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] أي من دعائه الخير.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ يقال: خليط وخليطاء، ولا يقال: طويل وطولاء؛ لتقل الحركة في الواو. وفيه وجهان: أحدهما أنهما الأصحاب. الثاني أنهما الشركاء.

قلت: إطلاق الخليطاء على الشركاء. فيه بعد، وقد اختلف العلماء في صفة الخليطاء فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كل واحد بغنمه فيجمعهما راع واحد والدلو والمراح. وقال طاوس وعطاء: لا يكون الخليطاء إلا الشركاء. وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله ﷺ «لا يجمع بين مفترق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجحان بينهما بالسوية» (٢) وروي: «فإنهما يترادان الفضل»، ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء؛ فاعلمه. وأحكام الخلطة مذكورة في كتب الفقه. ومالك وأصحابه وجمع من العلماء لا يرون الصدقة على من ليس في حصته ما تجب فيه الزكاة. وقال الربيع والليث وجمع من العلماء منهم الشافعي: إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة. قال مالك: وإن أخذ المصدق بهذا ترادوا بينهم للاختلاف في ذلك، وتكون كحكم حاكم اختلف فيه.

(١) سيأتي مرفوعًا .

(٢) صحيح: البخاري (١٤٥٠) في الزكاة، عن أنس عن أبي بكر - رضي الله عنهما .

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يتعدى ويظلم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحدا. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصالحين، أي: وقليل هم ف «ما» زائدة. وقيل: بمعنى الذين وتقديره: وقليل الذين هم. وسمع عمر رضي الله عنه رجلا يقول في دعائه: اللهم اجعلني من عبادك القليل. فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال: أردت قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فقال عمر: كل الناس أفتقه منك يا عمر^(١)!

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَانَهُ﴾ أي ابتليناه. ﴿وَوَظَنَ﴾ معناه أيقن. قال أبو عمرو والفراء: ظن بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المعين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين. والقراءة ﴿فَتَانَهُ﴾ بتشديد النون دون التاء. وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه «فتناه» بتشديد التاء والنون على المبالغة. وقرأ قتادة وعبيد بن عمير وابن السميع «فتناه» بتخفيفهما. ورواه علي بن نصر عن أبي عمرو، والمراد به الملكان اللذان دخلا على داود عليه السلام.

السادسة عشرة: قيل: لما قضى داود بينهما في المسجد، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك فلم يظن داود؛ فأحبا أن يعرفهما، فصعدا إلى السماء حيال وجهه، فعلم داود عليه السلام أن الله تعالى ابتلاه بذلك، ونبهه على ما ابتلاه.

قلت: وليس في القران ما يدل على القضاء في المسجد إلا هذه الآية، وبها استدل من قال بجواز القضاء في المسجد، ولو كان ذلك لا يجوز - كما قال الشافعي - لما أقرهم داود على ذلك. ويقول: انصرفا إلى موضع القضاء. وكان النبي ﷺ والخلفاء يقضون في المسجد، وقد قال مالك: القضاء في المسجد من الأمر القديم. يعني في أكثر الأمور. ولا بأس أن يجلس في رحبته؛ ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض، ولا يقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب. وقد قال أشهب: يقضي في منزله وأين أحب.

السابعة عشرة: قال مالك رحمه الله: وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم، وأول من استقضى معاوية. قال مالك: وينبغي للقضاة مشاوراة العلماء. وقال عمر بن عبد العزيز: لا يستقضي حتى يكون عالما بآثار من مضى، مستشيرا لذوي الرأي، حليما نزها. قال: ويكون ورعا. قال مالك: وينبغي أن يكون متيقظا كثير التحذر من الخيل، وأن يكون عالما بالشروط، عارفا بما لا بد له منه من العربية؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمن حقوق المحكوم له. وينبغي له أن يقول قبل إنجاز الحكم للمطلوب: أبقيت لك حجة؟ فإن قال: لا حكم عليه، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجه أو بينة. وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة في غير هذا الموضع.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَهُ﴾ اختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه على أقوال ستة: الأول: أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها. قال سعيد بن جبير: إنما كانت فتنته النظرة.

(١) ضعيف: وفيه انقطاع، فإن الراوى هو علي بن زيد بن جدعان صاحب مناكير، وقد ذكره الإمام أحمد - رحمه الله - (ص ١٥٢) برقم (٥٩٤) في الزهد - بترقيمي - ومن طريقه أبو نعيم (٢/ ٣٢٧) في حلية الأولياء.

قال أبو إسحاق: ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها، فصارت الأولى له والثانية عليه. الثاني: أنه أغزى زوجها في حملة التابوت. الثالث: أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها. الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأة، فلما غاب خطبها داود فزوجت منه لجلالته، فاعتم لذلك أوريا. فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخطبها. وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة. الخامس: أنه لم يجزع على قتل أوريا، كما كان يجزع على من هلك من الجن، ثم تزوج امرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله. السادس: أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر. قال القاضي ابن العربي: أما قول من قال: إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء، وكذلك تعريض زوجها للقتل. وأما من قال: إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندي بحال؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب! وحكى السدي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرما لجلدته ستين ومائة؛ لأن حد قاذف الناس ثمانون وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة. ذكره الماوردي^(١) والشعبي أيضا. قال الشعبي: وقال الحارث الأعور عن علي: من حدث بحديث داود على ما ترويه القصاص معتقدا لجلدته حدين؛ لعظم ما ارتكب برمي من قد رفع الله محله، وارتضاه من خلقه رحمة للعالمين، وحجة للمجتهدين. قال ابن العربي^(٢): وهذا مما لم يصح عن علي. فإن قيل: فما حكمه عندكم؟ قلنا: أما من قال: إن نبيا زنى فإنه يقتل، وأما من نسب إليه ما دون ذلك من النظر والملازمة، فقد اختلف نقل الناس في ذلك؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته، فإنه يناقض التعزير المأمور به، فأما قولهم: إنه وقع بصره على امرأة تغتسل عريانة، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأمة؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها. وأما قولهم: إنه نوى إن مات زوجها تزوجها، فلا شيء فيه إذ لم يعرضه للموت.

وأما قولهم: إنه خطب على خطبة أوريا، فباطل يردده القرآن والآثار التفسيرية كلها. وقد روى أشهب عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريبا من داود عليه السلام وهي من ذهب، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده، ثم صنع مثل ذلك مرتين، ثم طارت واتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعر طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموع عينه^(٣). قال ابن العربي: وأما قول المفسرين: إن الطائر درج عنده فهم بأخذه واتبعه فهذا لا يناقض العبادة؛ لأنه مباح فعله، لا سيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة، وإنما أتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لا منفعة له فيه، وإنما ذكرهم لحسن الطائر خرق في الجهالة. أما أنه روي أنه كان طائرا من ذهب فاتبعه ليأخذه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في الصحيح: «إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عريانا فخر عليه رجلٌ من جراد من ذهب، فجعل يحثي

(١) النكت والعيون (٣/ ٤٨٩) للماوردي، والحارث ضعيف.

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٦٣٦، ١٦٣٨) للقاضي ابن العربي المالكي.

(٣) هذا باطل كله كما ذكرنا.

منه ويجعل في ثوبه، فقال الله تعالى له: يا أيوب، ألم أكن أغنيك؟ قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك^(١). قال القشيري: فهم داود بأن يأخذه ليدفعه إلى ابن له صغير فطار ووقع على كوة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضا وقد تقدم.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَخَرُّرَاكِعًا وَأَنَابًا﴾ أي خر ساجدا، وقد يعبر عن السجود بالركوع.

قال الشاعر:

فخرَّ على وجَّه راعِمًا وتَابَ إلى الله من كلِّ ذنب

قال ابن العربي: لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود؛ فإن السجود هو الميل، والركوع هو الانحناء، وأحدهما يدخل على الآخر، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئة، ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر، فسمي السجود ركوعا. وقال المهدي: وكان ركوعهم سجودا. وقيل: بل كان سجودهم ركوعا. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجدا لله عز وجل، أي: لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعا على الانحناء. ﴿وَأَنَابًا﴾ أي: تاب من خطيئته ورجع إلى الله. وقال الحسن بن الفضل: سألتني عبد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل: ﴿وَخَرُّرَاكِعًا﴾ فهل يقال للراعي: خر؟ قلت: لا. قال: فما معنى الآية؟ قلت: معناها: فخر بعد أن كان راعيا، أي: سجد.

الموفية عشرين: واختلف في سجدة داود: هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قرأ على المنبر: ﴿حَتَّى وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأ بها فتشزن^(٢) الناس للسجود، فقال رسول الله ﷺ: «إنها توبة نبي ولكني رأيتكم تشزنتم للسجود» ونزل وسجد. وهذا لفظ أبي داود^(٣). وفي البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال: ﴿حَتَّى﴾ ليست من عزائم القرآن، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها^(٤). وقد روي من طريق عن ابن مسعود أنه قال: ﴿حَتَّى﴾ توبة نبي ولا يسجد فيها؛ وعن ابن عباس أنها توبة نبي ونيبكم ممن أمر أن يقتدى به^(٥). قال ابن العربي^(٦): والذي عندي أنها ليست موضع سجود، ولكن النبي ﷺ سجد فيها فسجدنا بالاعتداء به. ومعنى السجود أن داود سجد خاضعا لربه، معترفا بذنبه. تابا من خطيئته؛ فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي اتبعه، وسواء قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا؟ فإن هذا أمر مشروع في كل أمة لكل أحد. والله أعلم.

الحادية والعشرون: قال ابن خُوَيزِمَنداد: قوله: ﴿وَخَرُّرَاكِعًا وَأَنَابًا﴾ فيه دلالة على أن السجود

(١) صحيح: البخاري (٢٧٩) في الغسل، عن أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٢) تشزَن: التاهب والتسهيب للشيء، والاستعداد له، مأخوذ من عرض الشيء وجانبه، كأن المشزن يدع الطمانينة في جلوسه ويقعد مستوفزا على جانب. النهاية (٢/ ٤٧٠) لابن الأثير.

(٣) صحيح: أبو داود (١٤١٠) الصلاة، وصححه الألباني هناك.

(٤) صحيح: البخاري (٣٤٢١) في أحاديث الأنبياء، وأحمد (١/ ٣٦٠).

(٥) انظر: فتح الباري (٢/ ٥٥٣)، عن أبي سعيد، وابن عباس. وانظر السابقة عند البخاري (٣٤٢٢) في أحاديث الأنبياء.

(٦) أحكام القرآن (٤/ ١٦٤٠) لابن العربي المالكي.

للشكر مفردا لا يجوز؛ لأنه ذكر معه الركوع؛ وإنما الذي يجوز أن يأتي بركتين شكرا، فأما سجدة مفردة فلا؛ وذلك أن البشارات كانت تأتي رسول الله ﷺ والأئمة بعده، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكرا، ولو كان ذلك مفعولا لهم لنقل نقلا متظاهرا لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة.

قلت: وفي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ صلى يوم بشر برأس أبي جهل ركعتين (١). وخرج من حديث أبي بكره أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره - أو يسره به - خر ساجدا شكرا لله (٢). وهذا قول الشافعي وغيره.

الثانية والعشرون: روى الترمذي وغيره واللفظ للغير: أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله ﷺ كان يصلي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ: ﴿ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ فلما بلغ السجدة سجدت معه الشجرة، فسمعها وهي تقول: اللهم أعظم لي بهذه السجدة أجرا، وارزقني بها شكرا (٣).

قلت: خرج ابن ماجه في سننه عن ابن عباس قال: كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فقال: إني رأيت البارحة فيما يرى النائم، كأني أصلي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول: اللهم احطط بها عني وزرا، واكتب لي بها أجرا، واجعلها لي عندك ذخرا. قال ابن عباس: فرأيت رسول الله ﷺ قرأ «السجدة» فسجد، فسمعته يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة (٤). ذكره الثعلبي عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قلت: يا رسول الله رأيتني في النوم كأني تحت شجرة والشجرة تقرأ «ص» فلما بلغت السجدة سجدت فيها، فسمعتها تقول في سجودها: اللهم اكتب لي بها أجرا، وحط عني بها وزرا، وارزقني بها شكرا، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجده. فقال لي النبي ﷺ: «أفسجدت أنت يا أبا سعيد؟» فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: «لقد كنت أحق بالسجود من الشجرة» ثم قرأ النبي ﷺ «ص» حتى بلغ السجدة فسجد، ثم قال مثل ما قالت الشجرة (٥).

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: فغفرنا له ذنبه. قال ابن الأنباري: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ تام، ثم تبتدئ ﴿وَأَنَّ لَهُ﴾ وقال القشيري: ويجوز الوقف على ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ ثم تبتدئ ﴿ذَلِكَ وَأَنَّ لَهُ﴾ كقوله: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ﴾ [ص: ٥٥] أي الأمر ذلك. وقال عطاء الخراساني وغيره (٦): إن داود سجد أربعين يوما حتى نبت المرعى من حر جوفه وغمر رأسه، فنودي: أجاجع فطعم وأعار فتكسى؛

(١) ضعيف: ابن ماجه (١٣٩١) في إقامة الصلاة وضعفه الألباني والبوصيري في الزوائد.

(٢) صحيح: أبو داود (٢٧٧٣) في الجهاد، والترمذي (١٥٧٨) في السير، وابن ماجه (١٣٩٤) في إقامة الصلاة وصححه الألباني هناك.

(٣) حسن: الترمذي (٥٧٩) في الصلاة، (٣٤٢٤) في الدعوات، وابن ماجه (١٠٥٣) في إقامة الصلاة، وصححه الألباني.

(٤) حسن: ابن ماجه (١٠٥٣) في إقامة الصلاة وصححه الألباني هناك.

(٥) ضعيف: الهيثمي (٢/ ٢٨٤، ٢٨٥) في المجمع وعزاه للطبراني وأعله به (اليمان بن نصر) وهو مجهول.

(٦) هذا مما لا يصح أبداً.

فنجب نجة هاج المرعى من حر جوفه، فغفر له وستر بها. فقال: يا رب هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غفرتة، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلا من بني إسرائيل، تركت أولادهم أيتاما، ونساءهم أراملا؟ قال: يا داود لا يجاوزني يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بشواب الجنة. قال: يا رب هكذا تكون المغفرة الهينة. ثم قيل: يا داود ارفع رأسك. فذهب ليرفع رأسه فإذا به قد نشب في الأرض، فأتاه جبريل فاقبلته عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها. رواه الوليد بن مسلم^(١) عن ابن جابر عن عطاء. قال الوليد: وأخبرني منير بن الزبير، قال: فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد: قال ابن لهيعة: فكان يقول في سجوده سبحانك هذا شرابي دموعي وهذا طعامي في رماد بين يدي، وفي رواية: إنه سجد أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبت العشب من دموعه^(٢). وروي مرفوعا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن داود مكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول في سجوده: يا رب داود زل زلة بعد بها ما بين المشرق والمغرب رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثا في الخلق من بعده، فقال له جبريل بعد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهم الذي هممت به»^(٣). وقال وهب^(٤): إن داود عليه السلام نودي أني قد غفرت لك. فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال: لم لا ترفع رأسك وريك قد غفر لك؟ قال يا رب كيف وأنت لا تظلم أحدا. فقال الله لجبريل: اذهب إلى داود فقل له يذهب إلى قبر أوريا فيتحلل منه، فأنا أسمعه نداءه. فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ونادى: يا أوريا فقال: لبيك! من هذا الذي قطع علي لذتي وأيقظني؟ فقال: أنا أخوك داود أسألك أن تجعلني في حل فأني عرضتك للقتل قال: عرضتني للجنة فأنت في حل. وقال الحسن وغيره^(٥): كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخطاء، ولا يشرب شرابا إلا مزجه بدموع عينيه. وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعة فلا يزال يبكي حتى يتبل بدموعه، وكان يذر عليه الرماد والملح فيأكل ويقول: هذا أكل الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر. ثم صام بعده الدهر كله وقام الليل كله. وقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته منقوشة في كفه. فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شيء إلا رآها فأبكته، وإن كان ليؤتى بالقدح ثلثاء ماء، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه. وروى الوليد بن مسلم: حدثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل عيني داود مثل القربتين تنطفان، ولقد حدد الدموع في وجه داود خديد الماء في الأرض»^(٦). قال الوليد^(٧): وحدثنا عثمان بن ابن العاتكة أنه كان في قول داود إذ هو خلوا من الخطيئة شدة قوله في الخطائين أن كان

(١) وهذا أيضا والوليد بن مسلم يدلس ويُسَوَّى وهو أخطر أنواع التدليس على الإطلاق .

(٢) إسناده مسلسل بالضعفاء : الوليد يدلس ، وابن لهيعة شيخ مصرى احترقت كتبه فنسى واختلط .

(٣) موضوع : وقد سبق .

(٤ ، ٥) باطل : وهب من كبار رواه الإسرائيليات ، والحسن مدلس ، وقد سبق إنكار هذه الروايات .

(٦ ، ٧) موضوع : الوليد مدلس ، والأوزاعي قد أرسل ، ثم كيف يقول : اللهم لا تغفر ، والأنبياء يطلبون الإسلام

للكفار ؟!

يقول: اللهم لا تغفر للخطائين. ثم صار إلى أن يقول: اللهم رب اغفر للخطائين لكي تغفر لداود معهم؛ سبحان خالق النور. إلهي خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني. إلهي أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصاها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها؛ سبحان خالق النور. إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت الأرض برحبها علي، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلى روحي. وفي الخبر: أن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته؛ فكان ينادي: إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلي روحي؛ رب اغفر للخطائين كي تغفر لداود معهم. وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فكانت تستنقع دموعه تحت رجله حتى تنفذ من الأفرشة كلها. وكان إذا كان يوم نوحه نادى مناديه في الطرق والأسواق والأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران: ألا إن هذا يوم نوح داود، فمن أراد أن يبكي على ذنبه فليأت داود فيسعه؛ فيهب السياح من الغيران والأودية، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عكف؛ وبنو إسرائيل حول منبره؛ فإذا أخذ في العويل والنوح، وأثارت الحركات منابع دموعه، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحا وبكاء، حتى يموت حول منبره بشر كثير في مثل ذلك اليوم. ومات داود عليه السلام - فيما قيل - يوم السبت فجاء؛ أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه وينزل؛ فقال: جئت لأقبض روحك. فقال: دعني حتى أنزل أو أرتقي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل؛ نفذت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمؤثر بعدها أثرا. قال: فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال. وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة. وقيل: تسع وسبعون، وعاش مائة سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة (١).

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قرية بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ قالوا: والله إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود. وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر: الزلفي الدنو من الله عز وجل يوم القيامة (٢). وعن مجاهد: يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة في يده فإذا رأى أهوايل يوم القيامة لم يجد منها محرزا إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى. قال: ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال له: ها هنا؛ ثم يرى فيقلق فيقال له: ها هنا، ثم يرى فيقلق فيقال له: ها هنا؛ حتى يقرب فيسكن فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ

(١) هذه الرواية مكذوبة من وجوه: فهل يصح أن يقال:

- نبي يذكر خطيئته؟

- بني ينوح ويولول، ويقال: هذا يوم النوح؟

وما هذا إلا من فعل الشيعة الذين يصرخون ويبيكون!!

- والسياح والعباد هذا كله من توهم الصوفية!؟

- ثم هذا البكاء الجماعي الذي يشبه بكاء يوم كربلاء، وحلقات الصوفية!! وإن لم يكن هذا موضوعاً فمتى يكون الموضوع!؟

(٢) باطل: والغريب أن الترمذي الحكيم قال: «الأخبار السابقة، لا تصح»، فكيف يقول بها؟ وانظر: نوادر الأصول (١/ ٢٤٤)، و(٣/ ٢٣٧) و(٤/ ٩٣).

لَهُ عِدْنًا نُزُلْنَاهُ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿١﴾ ذكره الترمذي الحكيم (١). قال: حدثنا الفضل بن محمد، قال: حدثنا عبد الملك بن الأصمغ قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري عن عبد الملك بن أبي سليمان عن مجاهد فذكره. قال الترمذي: ولقد كنت أمر زمانا طويلا بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد، والمعنى من قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا﴾ والقط: الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسول الله ﷺ تلا عليهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩]: وقال لهم: «إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم» قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا﴾ أي: صحيفتنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ قال الله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٧٧﴾﴾ فقص قصة خطيئته إلى منتهاها، فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود فأى شيء أريد من هذا الذكر؟ وكيف اتصل هذا بذلك؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني الله له يوما فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول: إنهم يعطون كتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاء بأمر الله؛ وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٧٦﴾﴾ فأوجعه ذلك من استهزائهم، فأمره بالصبر على مقاتلتهم، وأن يذكر عبده داود؛ سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة في كفه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القدرح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد، فإمّا سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهم منه، وهو حبيبه ووليه وصفيه؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا، فكيف كان يحل بأعداء الله وبعضاته من خلقه وأهل خزيه، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجحود، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يبق لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يوم القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال له: ها هنا، ثم يرى فيقلق ثم يقال ها هنا، ثم يرى فيقلق حتى يقرب فيسكن (٢).

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٧٥﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين، وقد مضى في «البقرة» القول في الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله.

(١) انظر السابق.

(٢) باطل: انظر السابق.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل وهو أمر على الوجوب وقد ارتبط هذا بما قبله، وذلك أن الذي عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل. فقيل له بعد هذا: فاحكم بين الناس بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أي: لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله. ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عن طريق الجنة. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يحيدون عنها ويتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في النار ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أي: بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله: ﴿نَسُوا﴾ أي: تركوا الإيمان به، أو تركوا العمل به فصاروا كالنامين. ثم قيل: هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوة. وقيل: بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته.

الثالثة: الأصل في الأفضية قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿لَتَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] الآية. وقد تقدم الكلام فيه.

الرابعة: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ قال: إن ارتفع لك الخصمان فكان لك في أحدهما هوى، فلا تشته في نفسك الحق له ليفلج^(١) على صاحبه، فإن فعلت محوت اسمك من نبوتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهل كرامتي. فدل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق، وألا يميل إلى أحد الخصمين لقربة أو رجاء نفع، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة، أو غيرهما. وقال ابن عباس: إنما ابتلي سليمان بن داود عليه السلام، لأنه تقدم إليه خصمان فهوي أن يكون الحق لأحدهما^(٢). وقال عبد العزيز بن أبي رواد: بلغني أن قاضيا كان في زمن بني إسرائيل، بلغ من اجتهاده أن طلب إلى ربه أن يجعل بينه وبينه علما، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك؛ وإذا هو قصر عرف ذلك، فقيل له: ادخل منزلك، ثم مد يدك في جدارك، ثم انظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فاخطط عندها خطأ؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء، فارجع إلى ذلك الخط فامد يدك إليه، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه، وإن قصرت عن الحق قصر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضي إلا بحق، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا، ولم يفض إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخط، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحل الله له من أهل أو مطعم أو مشرب. فلما كان ذات يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يريدانه: فوقع في نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه، وكان أحدهما له صديقا وخذنا، فتحرك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضي له، فلما أن تكلم دار الحق على صاحبه فقضى عليه، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم، فمد يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشم إلى السقف، وإذا هو لا يبلغه فخر ساجدا وهو يقول: يا رب شيئا لم أنعمده ولم أرده فبينه لي. فقيل له: أتخسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضي له به، قد أردته وأحببته ولكن الله قد رد الحق

(١) يفلج: الفلج هو الظفر والفوز، وقد فلج الرجل على خصمه يفلج فلجاً. اللسان «فلج».

(٢) سبق هذا وتصحيحه.

إلى أهله وأنت كاره^(١) .

وعن ليث قال: تقدم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا ففصل بينهما، فقيل له في ذلك، فقال: تقدما إلي فوجدت لأحدهما ما لم أجد لصاحبه، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك له، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما^(٢) . وقال الشعبي: كان بين عمر وأبي خصومة، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أول جورك؛ أجلسني وإياه مجلسا واحدا؛ فجلسا بين يديه^(٣) .

الخامسة: هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحكام لو مكثوا أن يحكموا بعلمهم لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليه ويهلك عدوه إلا ادعى علمه فيما حكم به . ونحو ذلك روي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال: لو رأيت رجلا على حد من حدود الله، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري . وروي أن امرأة جاءت إلى عمر فقالت له: احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي عنده . فقال لها: إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا^(٤) . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد^(٥)؛ وروى عن النبي ﷺ أنه اشترى فرسا فجحده البائع، فلم يحكم عليه بعلمه وقال: «من يشهد لي؟» فقام خزيمه فشهد فحكم . خرج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى في «البقرة»^(٦) .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾^(٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٨﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي: هزلا ولعبا. أي ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلا. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ ثم وبخهم فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالْمِيمِ صَلَةً تَقْدِيرَهُ: أُنَجِّعِلُ الذِّينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فكان في هذا رد على المرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه . وبعده أيضا: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

(١) باطل : عبد العزيز بن أبي رواد ضعيف إذا أسند فكيف وهو يرسل؟ وقد ذكره الطبري (٢٣ / ١٤٢) ، عن ابن عباس بسند حسن .

(٢) ضعيف : ليث ضعيف ولم يدرك عمر . نوادر الأصول (٢ / ١٨٠) .

(٣) منقطع : فالشعبي لم يسمع عمرا ولا أبي بن كعب، ورواه ابن الجعد (١ / ٢٦٠) في مسنده ، وابن حزم (٩ / ٣٨١) في المحلى .

(٤) لم أجده بنفس اللفظ .

(٥ ، ٦) صحيحان : وقد سبقا .

كَالْفُجَّارِ ﴿١﴾ أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار؛ قاله ابن عباس^(١) . وقيل: هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن، وهو رد على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ أي: يا محمد ﴿لِيَذَّبَ﴾ أي: ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهمد^(٢)؛ إذ لا يصح التدبر مع الهمد على ما بيناه في كتاب التذكار. وقال الحسن: تدبر آيات الله اتباعها^(٣). وقراءة العامة: ﴿لِيَذَّبَ﴾. وقرأ أبو حنيفة وشيبة: «لتدبروا» بناء وتخفيف الدال^(٣)، وهي قراءة علي رضي الله عنه، والأصل لتدبروا فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ أو ثلوا الألباب ﴿أي: أصحاب العقول واحدها لب، وقد جمع على ألب، كما جمع بؤس على أبوس، ونعم على أنعم؛ قال أبو طالب:

قلبي إليه مُشرفُ الألبِ

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيْت:

إليكم ذوي آل النبي تطلعت نوازع من قلبي ظمَاءٌ وَأَلْبٌ

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطْفِقْ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لما ذكر داود ذكر سليمان و﴿أَوَّابٌ﴾ معناه مطيع. ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الخضر؛ كما يقال للإنسان: جواد إذا كان كثير العطية غزيرها؛ يقال: قوم أجواد وخيل جياد، جاد الرجل بماله يوجد جوداً فهو جواد، وقوم جود مثال قذال وقذل، وإنما سكنت الواو لأنها حرف علة، وأجواد وأجاود وجوداء، وكذلك امرأة جواد ونسوة جود مثل نوار ونور، قال الشاعر:

صَنَاعٌ بِإِشْفَاهَا حَصَانٌ بِشُكْرِهَا . جَوَادٌ بِقُوْتِ الْبَطْنِ وَالْعِرْقُ زَاخِرٌ

وتقول: سرنا عقبه جوادا، وعقبتين جوادين، وعقباً جيادا. وجاد الفرس، أي: صار رائعا يوجد جودة بالضم فهو جواد للذكر والأنثى، من خيل جياذ وأجياذ وأجاويد. وقيل: إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجيد وهو العنق؛ لأن طول الأعناق في الخيل من صفات فرائتها. وفي ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ أيضا وجهان: أحدهما: أن صفونها قبامها. قال القتيبي والفراء: الصافن في كلام العرب: الواقف من الخيل أو غيرها. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من سره أن يقوم له الرجال صفونا، فليستبوا

(١) عزاه السيوطي (٥/ ٥٧٧) في الدر المنثور لابن عساكر .

(٢) الهمد: سرعة القراءة - اللسان « هذذ » .

(٣) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٦٧) .

مقعده من النار» (١)، أي: يديون له القيام؛ حكاة قطرب أيضا وأنشد قول النابغة:

لنا قبة مضروبة بفنائها عتاق المهارى والجياد الصوائف

وهذا قول قتادة (٢). الثاني: أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على

ثلاث كما قال الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كأنه مماً يقوم على الثلاث كسيراً

وقال عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعتتها صفونا

وهذا قول مجاهد (٣). قال الكلبي: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف

فرس (٤). وقال مقاتل: ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة (٥).

وقال الحسن: بلغني أنها كانت خيلا خرجت من البحر لها أجنحة. وقاله الضحاك (٦). وأنها كانت

خيلا أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة (٧). ابن زيد: أخرج الشيطان لسليمان الخيل

من البحر من مروج البحر، وكانت لها أجنحة (٨). وكذلك قال علي رضي الله عنه: كانت عشرين

فرسا ذوات أجنحة (٩). وقيل: كانت مائة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين

ألفا (١٠)، فالله أعلم. فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني بالخير: الخيل، والعرب تسميها

كذلك، وتعاقب بين الرء واللام؛ فنقول: انهملت العين وانهمرت، وختلت وخترت إذا خدعت.

قال الفراء: الخير في كلام العرب والخيل واحد. النحاس: في الحديث: «الخيل معقود في نواصيها

الخير إلى يوم القيامة» (١١) فكأنها سميت خيرا لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيد الخيل على النبي

ﷺ، قال له: «أنت زيد الخير» (١٢) وهو زيد بن مهلهل الشاعر. وقيل: إنما سميت خيرا لما فيها من

المنافع. وفي الخبر: إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب، وقيل له: اختر منها واحدا فاختر

(١) صحيح: أبو داود (٥٢٢٩) في الأدب، والترمذي (٢٧٥٥) في الأدب (٢٩١٥) في فضائل القرآن، عن معاوية

- رضي الله عنه، وصححه الألباني هناك.

(٢) صحيح إلى قتادة: الطبري (١٥٧/٢٣) تفسيره.

(٣) صحيح: الطبري (١٥٧/٢٣) في تفسيره.

(٤ - ١٠) أباطيل وأكاذيب لا تخلو أسانيدنا من الكذب والمقال! وفيها علل:

وعلتها الأولى: إنسانها الضعيف، وأنها مقطوعة ليست من قول معصوم كالنبي ﷺ وليس في القرآن ما

يؤيدها ولا في الحديث، وليست من قول الصحابة، ولا يثبت ذلك عنهم.

ثانيها: كيف يخرج الشيطان أفراساً من البحر؟ وهل له سلطان على سليمان!؟

ثالثاً: ما هذا العدد الكبير من هذه الخيل!؟

رابعاً: عدم ثبوت النص القرآني بها، والأغلب أنها منقولة عن الإسرائيليات، والله أعلم. فليحذر.

(١١) مغفوق عليه: وقد سبق.

(١٢) ضعيف: الهيثمي (٧/ ١٩٤) في المجمع وعزاه للطبراني، عن ابن مسعود وفيه عون بن عمارة وهو: ضعيف.

قلت: وقد ثبتت تسميته بـ (زيد الخير) كما عند مسلم (١٠٦٤) في كتاب الزكاة.

الفرس؛ فقيل له: اخترت عرك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسمي خيلا؛ لأنها موسومة بالعز. وسمي فرسا لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا، ويقطعها كالاتهام بيديه على كل شيء خبطا وتناولا. وسمي عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت، وإسماعيل عربي فصارت له نحلة من الله؛ فسمى عربيا. و﴿حُبَّ﴾ مفعول في قول الفراء. والمعنى إني آثرت حب الخير. وغيره يقدره مصدرا أضيف إلى المفعول؛ أي أحببت الخير حبا فألهاني عن ذكر ربي. وقيل: إن معنى ﴿أَحْبَبْتُ﴾ قعدت وتأخرت من قولهم: أحب البعير إذا برك وتأخر. وأحب فلان أي طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال: بعير محب، وقد أحب إجابا وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضا للبعير الحسير: محب؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربي. و﴿حُبَّ﴾ على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب «التبيان»: أحببت بمعنى لزمته؛ من قوله:

مَثَلُ بَعِيرِ السَّوِّءِ إِذْ أَحَبَّ

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني الشمس كناية عن غير المذكور؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] أي على ظهر الأرض؛ وتقول العرب: هاجت باردة، أي: هاجت الرياح باردة. وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] أي: بلغت النفس الحلقوم. وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢] ولم يتقدم للنار ذكر. وقال الزجاج: إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر، وقد جرى ها هنا الدليل وهو قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾. والعشي ما بعد الزوال، والتواري الاستتار عن الأبصار، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق؛ قاله قتادة وكعب. وقيل: هو جبل قاف. وقيل: جبل دون قاف. والحجاب الليل سمي حجبا لأنه يستتر ما فيه. وقيل: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ أي الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه في المسابقة؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر. وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان في صلاة فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غنمت فأشار بيده لأنه كان يصلي حتى توارت الخيل وسترتها جذر الإصطبلات فلما فرغ من صلاته قال: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي فأقبل لمسحها مسحا. وفي معناه قولان: أحدهما أنه أقبل لمسح سوقها وأعناقها بيده إكراما منها لها، وليرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله. وقال قائل هذا القول: كيف يقتلها؟ وفي ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له؟ وقيل: المسح ها هنا هو القطع أذن له في قتلها. قال الحسن والكلبي ومقاتل: صلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه، وكانت ألف فرس؛ فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة، ولم يعلم بذلك هيبه له فاغتم؛ فقال: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ فردت فعقرها بالسيف؛ قربة لله وبقي منها مائة، فما في أيدي الناس من الخيل العتاق اليوم فهي من نسل تلك الخيل. قال القشيري: وقيل: ما كان في ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها. وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا، فلم يذكره أحد ما نسي من الفرض أو النقل وظنوا التأخر مباحا، فتذكر سليمان تلك الصلاة الفاتية، وقال على سبيل التلهف: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: عن

الصلاة، وأمر برد الأفراس إليه، وأمر بضرب عراقبيها وأعناقها، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة. ولعله عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبة عن النفار، ثم ذبحها في الحال، ليتصدق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحا في شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله، فأتى الله عليه بهذا، وبين أنه أثابه بأن سخر له الريح، فكان يقطع عليها من المسافة في يوم ما يقطع مثله على الخيل في شهرين غدوا ورواحا. وقد قيل: إن الهاء في قوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ للشمس لا للخيل.

قال ابن عباس: سألت عليا عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها؟ فقلت: سمعت كعبا يقول: إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة، قال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: آثرت ﴿حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ الآية ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ يعني الأفراس وكانت أربع عشرة؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوما؛ لأنه ظلم الخيل. فقال علي بن أبي طالب: كذب كعب لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت، أي: غربت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس: ﴿رُدُّوْهَا﴾ يعني الشمس فردوها حتى صلى العصر في وقتها، وأن أنبياء الله لا يظلمون لأنهم معصومون (١).

قلت: الأكثر في التفسير أن توارت بالحجاب هي الشمس، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها ومتعلق بذكرها، حسب ما تقدم بيانه. وكثيرا ما يضمرون الشمس؛ قال لبيد:

حتى إذا أَلَقْتُ يَدًا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا

والهاء في: ﴿رُدُّوْهَا﴾ للخيل، ومسحها. قال الزهري وابن كيسان: كان يسمح سوقها وأعناقها، ويكشف الغبار عنها حبا لها. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس. وفي الحديث أن النبي ﷺ وهو يسمح فرسه بردائه. وقال: «إني عوتبت الليلة في الخيل» (٢) خرج الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلا. وهو في غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس. وقد مضى في «الأطفال» قوله عليه السلام: «وامسحوا بنواصيها وأكفأها» (٣) وروى ابن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها

(١) ذكره الحافظ ابن حجر (٦/ ٢٢٢) في الفتح، وهو عند البغوي (٧/ ٩٠) في تفسيره، وعزاه الحافظ للثعلبي، وقال الحافظ ابن حجر «أورد هذا الأثر جماعة ساكتين عليه، جازمين بقولهم: قال ابن عباس: قلت لعلي... والثابت عن جمهور أهل العلم بالتفسير من الصحابة ومن بعدهم أن الضمير في قوله: ﴿رُدُّوْهَا﴾ للخيل، والله أعلم. هـ.

قلت: والصحيح هو ما اختاره الطبري - رحمه الله - وهو أن سليمان مسح على رقاب هذه الخيل وسوقها بعد أن شغلته عن الصلاة، لأنه نبي الله ﷺ لم يكن - إن شاء الله - ليعذب حيوانا بالقتل ويهلك مالا، من ماله بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها. ورواه الطبري (٢٣/ ١٦٠) في تفسيره، عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة الوالبي. قلت: وهذا الصحيح ولو رده ابن كثير، وانظر أبا شهبة في الإسرائيليات والموضوعات.

(٢) كذا عند مالك (٢/ ٤٦٨) في الموطأ كتاب الجهاد - باب «ما جاء في الخيل»، ووصله ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ١٠٠) ط وزارة الأوقاف المغربية وقال: «لا يصح» - يعني مسندا.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الأنفال.

قلت: وقد استدلل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا. وهو استدلال فاسد؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبي معصوم أنه فعل الفساد. والمفسرون اختلفوا في معنى الآية؛ فمنهم من قال: مسح على أعناقها وسوقها إكراماً لها وقال: أنت في سبيل الله؛ فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عرقها ثم ذبحها، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز. وقد مضى في «النحل» بيانه (١). وعلى هذا فما فعل شيئاً عليه فيه جناح. فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز. ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل، ولا يكون في شرعنا. وقد قيل: إنما فعل بالخيول ما فعل بإياحة الله جل وعز له ذلك. وقد قيل: إن مسحه إياها وسمها بالكبي وجعلها في سبيل الله؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث إن السوق ليست بمحل للوسم بحال. وقد يقال: الكبي على الساق علاط، وعلى العنق وثاق. والذي في الصحاح للجوهري: علط البعير علاطاً: كواه في عنقه بسمه العلاط. والعلاطان: جانباً العنق.

قلت: ومن قال إن الهاء في ﴿رُدُّوْهَا﴾ ترجع للشمس فذلك من معجزاته. وقد اتفق مثل ذلك لنبينا ﷺ. خرج الطحاوي في «مشكل الحديث» عن أسماء بنت عميس من طريقين أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسول الله ﷺ: «أصليت يا علي؟» قال: لا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها بعدما غربت طلعت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر (٢). قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ورواتهما ثقات.

قلت: وضعف أبو الفرج ابن الجوزي هذا الحديث فقال: وغلو الرافضة في حب علي عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله؛ منها: أن الشمس غابت ففاتت علياً عليه السلام العصر فردت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدد لا يرد الوقت. ومن قال: أن الهاء ترجع إلى الخيل، وإنها كانت تبعد عن عين سليمان في السباق، ففيه دليل على المسابقة بالخيول وهو أمر مشروع. وقد مضى القول فيه في «يوسف» (٣).

(١) عند الآية (٨).

(٢) وذكره الهيثمي (٨ / ٢٩٧) في المجمع وعزه للطبراني بأسانيد، وقد رواه ابن حجر (٦ / ٢٢٢) في الفتح ولم يقل بصحته، وإنما نفى أن يكون موضوعاً.

وأشار شيخ الإسلام في مناهج السنة النبوية إلى تضعيفه، فقد بان له عدم صحة هذا الحديث.

من كلام الشيخ عبد الله الدرويش - رحمه الله - في هامش فتح الباري.

قلت: والنص: «إن الشمس لم تحبس لأحد إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس...» الحديث رواه أحمد بسند صحيح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه، كما في المسند (٢ / ٣٢٥) وإسناده على شرط البخاري، والله أعلم.

وقد قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - أن هذا الحديث مستنكر من كل الوجوه، وكذا صرح بوضعه شيخنا: الذهبي والمزي ومن الأقدمين بن الجوزي وابن عساكر والجوزجاني وابن المديني وأبو بكر البخاري، وابن زنجويه، وغيرهم من نقاد الحديث، وانظر البداية والنهاية (٦ / ٦٧٦) في حديثه عن قصة حبس الشمس، وما أعطي رسول الله ﷺ. وما أعطى لانيك قبله.

(٣) عند الآية (١٧).

﴿ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٧﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٨﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٩﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٠﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة^(١)، وملك بعد الفتنة عشرين سنة؛ ذكره الزمخشري. و﴿ فَتَنَّا ﴾ أي: ابتلينا وعاقبنا. وسبب ذلك: ما رواه سعيد بن جبير

(١) ذكر المصنف هنا قصصًا ولولا أن سطرها إخباريو أهل الكتاب وزادتهم ما كنا نتصورها. - فمما ذكره أن نبي الله سليمان - عليه السلام - يتزوج بامرأة تاركًا لها صنمًا تعبد، وتمثالًا على هيئة أبيها، ويقرّها على الشرك لمجرد حبه لها !!.

فما الذي يميز الأنبياء عن بقية ملوك الأرض من تتحكم فيهم الأهواء؟! ولو كان هذا في عوام الملوك لعب عليه فكيف بنبي يوحى إليه؟! هذا ما دأبت عليه أمة يهود من اتهام الأنبياء بالكفر والشرك.

- ثم قصة الخاتم هذه ما أكذبها، وقد ردّ العلماء هنا على سردها وهذه بعض أقوالهم:

* قال الزمخشري (٣/ ٣٢٩) في تفسيره بعد ذكره هذه القصة: ولقد أبي العلماء المتقنون قبوله، وقالوا: هذا من أباطيل اليهود والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل، وتسلط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيحًا.

* وقال القاضي عياض (٢/ ١٨٩) في الشفا:

ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان، وتسلطه على ملكة، وتصرفه في أمته بال جور في حكمه؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا وقد عصم الأنبياء من مثله.

* أما فارس الميدان ابن كثير - رحمه الله - فقد قال (٧/ ٦٠) في تفسيره: «وهذه كلها من الإسرائيليات» - ثم ذكر رواية ابن عباس من طريق سعيد بن جبير، وقال: «إسناده إلى ابن عباس فيه قول، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس - رضي الله عنهما - إن صح عنه - من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا تعتقد نبوة سليمان - عليه السلام - فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في السياق منكرات، من أشدها: ذكر النساء».

* وفي زاد المسير (٧/ ١٣٣)، قال ابن الجوزي: «وهذا لا يصح، ولا ذكره من يوثق به».

* وعلّق أبو شهبة (ص ٣٨) في الإسرائيليات والموضوعات: بأن صحة السند لا تعني صحة المتن هنا. قلت: هذا إن صحّ السند - وقد شكّ فيه ابن كثير - رحمه الله.

وقد علّق أبو شهبة - رحمه الله تعالى، فقال:

«وإذا جار للشيطان أن يتمثل برسول الله سليمان - عليه السلام - فأى ثقة بالشرائع تبقى بعد هذا؟ وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه سليمان، وهو أكرم على الله من ذلك؟! وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه ويزولان بزواله؟! وما عهدنا في التاريخ البشري شيئًا من ذلك!!؟»

قلت: وفي الأسانيد نلمح وهب بن منبه، وكعبا، مما يدل على أن القصة قد جاءت من ناحيتهما وتلقفها التابعون. كقتادة وابن المسيب، والحسن، وغيرهم فاللهم براء. ولقد نقل الرازي في تفسيره أربعة أقوال في تفسير الفتنة، نختار منها ما جاء الدليل موافقًا لها ألا وهو حديث أبي هريرة في الصحيحين مرفوعًا: قال سليمان: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله؛ ولم يقل: إن شاء الله، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة، فلم تلد منهن إلا امرأة ولدت نصف إنسان».

عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان؛ وكان يحبها فهوى أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى. وقال سعيد بن المسيب: إن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد، ولا ينصف مظلوماً من ظالم، فأوحى الله تعالى إليه إنى لم أستخلفك لتحتجب عن عبادي ولكن لتقضي بينهم وتنصف مظلومهم. وقال شهر بن حوشب ووهب بن منبه: إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزاه في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لها: صيدون. فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شزراً، ولا تكلمه إلا نزراً، وكان لا يرقأ لها دمع حزناً على أبيها، وكانت في غاية من الجمال، ثم إنها سألته أن يصنع لها تمثالاً على صورة أبيها حتى تنظر إليه، فأمر فصنع لها فعظمته وسجدت له، وسجدت معها جواربها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره، وحرقه ثم ذراه في البحر. وقيل: إن سليمان لما أصاب ابنة ملك صيدون واسمها جرادة - فيما ذكر الزمخشري - أعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت، فخوفها فقالت: اقتلني ولا أسلم فتزوجها وهي مشركة فكانت تعبد صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خفية من سليمان إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوماً. وقال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نساته في شيء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أمر ألا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غيرهم، فعوقب على ذلك؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ قيل: شيطان في قول أكثر أهل التفسير؛ ألقى الله شبه سليمان عليه السلام عليه، واسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت. قال ابن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان أم ولد له يقال لها الأمانة؛ قاله شهر ووهب. وقال ابن عباس وابن جبير: اسمها جرادة. فقام أربعين يوماً على ملك سليمان وسليمان هارب، حتى رد الله عليه الخاتم والملك. وقال سعيد بن المسيب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته. وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يد سليمان؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان اسمه آصف: كيف تضلون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسي سليمان، متشبهاً بصورته، داخلاً على نساته، يقضي بغير الحق، ويأمر بغير الصواب.

= قال عليه السلام: «لو قال: إن شاء الله، لولدت كل امرأة منهن غلاماً يغزو بالسيف في سبيل الله عز وجل» وسيأتي تخريجه قريباً.

قلت: وهذا هو الجسد - والله أعلم - الذي ألقاه على كرسي سليمان عليه السلام لتظاهر الدليلين: دليل الكتاب مجملاً، والسنة مفصلاً كما اتفق العلماء المحررون المحققون الأثبات الثقات، فلا تلتفت إلى مثل هذه القصص التي سطرت لتدخل كتب التفسير ليُضَلَّ بها المسلم، عن سبيل الله - عز وجل - .

واختلف في إصابته لنساء سليمان، فحكى عن ابن عباس ووهب بن منبه: أنه كان يأتيهن في حيزهن. وقال مجاهد: منع من إتيانهن وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربا إلى ساحل البحر يتضيف الناس؛ ويحمل سموك الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه. قال قتادة: ثم إن سليمان بعد أن استنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوته من صياد. قيل: إنه استطعمها. وقال ابن عباس: أخذها أجرة في حمل حوت. وقيل: إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمها فيها، وذلك بعد أربعين يوما من زوال ملكه، وهي عدد الأيام التي عبد فيها الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطان الذي أخذه ألقاه في البحر. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يعبت بخاتمها، إذ سقط منه في البحر وكان ملكه في خاتمها. وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ «كان نقش خاتم سليمان بن داود: لا إله إلا الله، محمد رسول الله» (١).

وحكى يحيى بن أبي عمرو الشيباني أن سليمان وجد خاتمها بعسقلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعا لله تعالى. قال ابن عباس وغيره: ثم إن سليمان لما رد الله عليه ملكه، أخذ صحرا الذي أخذ خاتمها، ونقر له صخرة وأدخله فيها، وسد عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمها وألقاها في البحر، وقال: هذا محبسك إلى يوم القيامة.

وقال علي رضي الله عنه: لما أخذ سليمان الخاتم، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطيور والوحش والريح، وهرب الشيطان الذي خلف في أهله، فأتى جزيرة في البحر، فبعث إليه الشياطين فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يرد عينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوما، ولا نقدر عليه حتى يسكرا! قال: فترح سليمان ماءها وجعل فيها خمرا، فجاء يوم وروده فلذا هو بالخمرة، فقال: والله إنك لشراب طيب إلا أنك تطيشين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم عطش عطشا شديدا ثم أتاه فقال مثل مقالته، ثم شربها فغلبت على عقله؛ فأروه الخاتم فقال: سمعا وطاعة. فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا: إن الدخان الذي ترون من نفسه، والماء الذي يخرج من الجبل من بوله. وقال مجاهد: اسم ذلك الشيطان آصف. وقال السدي اسمه حقيق؛ فالله أعلم. وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصور بصورة الأنبياء، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبينهم في حق، وهم مع الشيطان في باطل. وقيل: إن الجسد كلدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما ولد اجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إن عاش له ابن لم تنفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة، فتعالوا تقتل ولده أو نخبله. فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب، وغدا ابنه في السحاب خوفا من مضرة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتا. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾.

(١) موضوع: فيه شيخ ابن أبي خالد: منهم بالوضع، وقال الذهبي: هذا الحديث من أباطيله، وأورده ابن عدي (٤٧ / ٤) في الكامل.

قلت: ورواه الهيثمي (١٥٢ / ٥) في المجمع من حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - وفيه محمد بن مخلد الرعيني: ضعيف جداً.

وحكى النقاش وغيره: إن أكثر ما وطئ سليمان جواريه طلبا للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسية جاءت به القابلة فألقته هناك. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وإيم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون» (١). وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصديق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه، فأعادته إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف: إنك مفتون ولذلك لا يتماسك في يدك، ففر إلى الله تعالى تائبا من ذلك، وأنا أقوم مقامك في عالمك إلى أن يتوب الله عليك، ولك من حين فتننت أربعة عشر يوما. ففر سليمان هاربا إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت، وكان عنده علم من الكتاب. وقام آصف في ملك سليمان وعياله، يسير بسيره ويعمل بعمله، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى، ورد الله عليه ملكه؛ فأقام آصف في مجلسه، وجلس على كرسية وأخذ الخاتم. وقيل: إن الجسد كان سليمان نفسه؛ وذلك أنه مرض مرضا شديدا حتى صار جسدا. وقد يوصف به المريض المضمنى فيقال: كالجسد الملقى.

صفة كرسى سليمان وملكه (٢):

روي عن ابن عباس قال: كان سليمان يوضع له ستمائة كرسي، ثم يجيء أشرف الناس فيجلسون مما يليه، ثم يأتي أشرف الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فتظلمهم، ثم يدعو الريح فتقلهم، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر. وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما ملك بعد أبيه، أمر باتخاذ كرسي ليجلس عليه للقضاء، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيب؛ فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مفصصة بالدر والياقوت والزربرد، وأن يحف بنخيل الذهب؛ فحف بأربع نخلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسي أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر. وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي. وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى، فيستدير الكرسي كله بما فيه دوران الرحي المسرعة، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها، ويبسط الأسدان أيديهما، ويضربان الأرض بأذناهما. وكذلك يفعل في كل درجة يصعد بها سليمان، فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعهما على رأسه، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه النسران والطاووسان والأسدان

(١) متفق عليه: البخاري (٥٢٤٢) في النكاح، ومسلم (١٦٥٤) في الأيمان.

(٢) باطل: الروايات من الإسرائيليات ولا تلتفت إلى هذا الكلام

مانلان برؤوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة، فافتحها سليمان عليه السلام وبقروها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء. قالوا: ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة بالجواهر، وهي ألف كرسي عن يمينه، ويجلس عظماء الجن على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسي، ثم تحف بهم الطير تظلمهم، ويتقدم الناس لفصل القضاء. فإذا تقدمت الشهود للشهادات، دار الكرسي بما فيه وعليه دوران الرحي المسرعة، ويسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنايهما، وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما، فتفزح الشهود فلا يشهدون إلا بالحق.

وقيل: إن الذي كان يدور بذلك الكرسي تين من ذهب ذلك الكرسي عليه، وهو عظم مما عمله له صخر الجنى؛ فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطاووس التي في أسفل الكرسي إلى أعلاه درن معه، فإذا وقفن وقفن كلهن على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعا على رأسه ما في أجوافهن من المسك والعنبر. فلما توفي سليمان بعث بختنصر فأخذ الكرسي فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعا. ومات بختنصر وحمل الكرسي إلى بيت المقدس، فلم يستطع قط ملك أن يجلس عليه، ولكن لم يدر أحد عاقبة أمره ولعله رفع.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى الله وتاب. وقد تقدم.
قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي: اغفر لي ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبَغِّي لَأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ يقال: كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا، مع ذمها من الله تعالى، وبغضه لها، وحقارتها لديه؟ فالجواب: أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه، وترتيب منازل خلقه، وإقامة حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظهور عبادته، ولزوم طاعته، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك ملائكته فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهده خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك، فأجيب نوح فأهلك من عليها، وأعطى سليمان المملكة. وقد قيل: إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباد، أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال: ﴿لَا يُبَغِّي لَأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ وهذا فيه نظر. والأول أصح. ثم قال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الحسن: ما من أحد إلا ولله عليه تبة في نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الآية^(١).

(١) عزاه السيوطي (٥/ ٥٨٨) في الدر المنثور لعبد بن حميد.

قلت: وملك سليمان عليه السلام الذي طلبه ورجاه هو عطاء إلهي استجاب له سليمان - عليه السلام - بدعاء بشري، وإلهام نبوي، فإن الأنبياء ما ينطقون عن الهوى، وبهذا الملك أصلح الله تعالى أمة بني إسرائيل وأسلمت بليقوس وقومها، وكفى الله الناس شر الشياطين، وظهر زيفهم وزورهم، فهو ملك دنوي فيما يراه الرائي، بينما الحكمة منه ظاهرة:

قلت: وهذا يرد ما روي في الخبر: إن آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه في الدنيا. وفي بعض الأخبار: يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفاً؛ ذكره صاحب «القوت» وهو حديث لا أصل له^(١)؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه لأنه من طريق المنة، فكيف يكون آخر الأنبياء دخولا الجنة، وهو سبحانه يقول: ﴿وَإِنْ لَهُ عُنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾؟! وفي الصحيح: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته...» الحديث. وقد تقدم^(٢). فجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية، فلذلك لم تكن عليه تبعة. ومعنى قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ أي: أن يسأله. فكانه سأل منع السؤال بعده، حتى لا يتعلق به أمل أحد، ولم يسأل منع الإجابة. وقيل: إن سؤاله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ ليكون محلله وكرامته من الله ظاهراً في خلق السموات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس في المحل عنده، فكل يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محلله عنده، ولهذا لما أخذ النبي ﷺ العفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه، أراد ربطه ثم تذكر قوله أخيه سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فرده خاسئاً^(٣). فلو أعطي أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية، فكانه كره ﷺ أن يزاحمه في تلك الخصوصية، بعد أن علم أنه شيء هو الذي خص به من سخرة الشياطين، وأنه أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً﴾ أي: لينة مع قوتها وشدتها حتى لا تضر بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما روي فرسخاً في فرسخ، مائة درجة بعضها فوق بعض، كل درجة صنف من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه؛ صلوات الله وسلامه عليه. وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدثنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال حدثنا أبو بكر بن عياش. عن إدريس بن وهب بن منبه، قال: حدثني أبي قال: كان لسليمان بن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد،

= * فظهر الفارق بين النبوة والسحر .

* وظهر للناس زيف الشياطين وتلييسهم على البشر .

* وظهر قدرة الله تعالى في تسخير خلقه ، وأن الشياطين مهما بلغت قوتهم ما هم إلا خلق من خلق الله تعالى .

* إسلام كثير من الناس تلقيس وغيرها .

* وتبيان أن الملك أن كان مقروناً بالطاعة فهو أبلغ في الرفعة والسمو .

* وتبيان أن الغنى الشاكر خير عند الله من الفقير الصابر ، والله أعلم .

* وتبيان أن الملك لا يقوم على الظلم والقهر فحسب وإنما قد يقوم على الطاعة والإيمان والصلاح .

* وتبشير المؤمنين بأن نصر الله آتٍ وقادم لا محالة ، فالذي سخر لسليمان كل ما شجر ، قادر على أن ينصر من ينصره ، وهو القوى العزيز .

(١) لا يصح : قوت القلوب كتاب يقول فيه صاحبه أبو طالب المكي : « ليس على المخلوق أضر من الخالق !! فانتبه يرحمك الله .

(٢) صحيح : وقد سبق .

(٣) متفق عليه : ورواه المصنف هنا بالمعنى ، وقد رواه البخاري (٤٨٠٨) في التفسير ، ومسلم (٥٤١) في المساجد .

فركب الريح يوما فمر بحراث فنظر إليه الحراث فقال: لقد أوتي آل داود ملكا عظيما فحملت الريح كلامه فألقته في أذن سليمان، قال: فنزل حتى أتى الحراث فقال: إني سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لثلاث تمنى ما لا تقدر عليه؛ لتسيحة واحدة يقبلها الله منك لخير مما أوتي آل داود. فقال الحراث: أذهب الله همك كما أذهبت همي^(١).

قوله تعالى ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي أراد؛ قاله مجاهد. والعرب تقول: أصاب الصواب وأخطأ الجواب، أي: أراد الصواب وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابي. وقال الشاعر:

أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ لَدَى الْمَفْصَلِ

وقيل: أصاب أراد بلغة حمير. وقال قتادة: هو بلسان^(٢) هجر، وقيل: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ حينما قصد، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود. ﴿وَالشَّيَاطِينِ﴾ أي: وسخرنا له الشياطين وما سخرت لأحد قبله. ﴿كُلُّ بِنَاءٍ﴾ بدل من الشياطين، أي: كل بناء منهم، فهم يبنون له ما يشاء. قال:

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْإِلَهُ لَهُ قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الْفَنَدِ
وَخَيْسَ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمُرُ بِالصَّفَّاحِ وَالْعَمْدِ

﴿وَعَوَاصٍ﴾ يعني في البحر يستخرجون له الدر. فسليمان أول من استخرج له اللؤلؤ من البحر. ﴿وَأَخْرَجَ مَقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي وسخرنا له مردة الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة. السدي: الأغلال. ابن عباس: في وثاق. ومنه قول الشاعر:

فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَ

قال يحيى بن سلام: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم. قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ الإشارة بهذا إلى الملك، أي: هذا الملك عطاؤنا فأعط من شئت أو منع من شئت لا حساب عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما. قال الحسن: ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعه إلا سليمان عليه السلام؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَمَنْنُ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣). وقال قتادة: الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ إلى ما أعطيه من القوة على الجماع، وكانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية، وكان في ظهره ماء مائة رجل^(٤)، رواه عكرمة عن ابن عباس^(٥). ومعناه في البخاري: ﴿فَمَنْنُ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وعلى هذا ﴿فَمَنْنُ﴾ من المنى؛ يقال: أمنى يمني ومنى يميني لغتان، فإذا أمرت من أمنى قلت أمن؛ ويقال: من منى يميني في الأمر أمن، فإذا جئت بنون الفعل نون الحفيفة قلت: امنن. ومن ذهب به إلى المنة قال: من عليه؛ فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين؛ لأنه كان مضاعفا فقال: امنن. فيروى في الخبر أنه سخر له الشياطين، فمن شاء من عليه بالعق والتخلية، ومن شاء أمسكه؛ قاله قتادة والسدي^(٦). وعلى ما روى عكرمة عن ابن

(١) ضعيف الإسناد ولا يصح: لكونه من الإسرائيليات التي نقلها إدريس - رحمه الله - ورواه أبو نعيم (٤/ ٥٩) في حلية الأولياء.

قلت: وإدريس هذا هو ابن بنت وهب بن منبه ونسب إليه وهو ابن سنان الصنعاني.

(٢) النكت والعيون (٥/ ٩٩) للماوردي. (٣) سبق هذا.

(٤) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٣/ ١٦٧) في تفسيره.

(٥) (٦، ٥) ذكرها الماوردي (٥/ ٩٩، ١٠٠) في النكت والعيون.

عباس: أي جامع من شئت من نساتك، واترك جماع من شئت منهن لا حساب عليك^(١). ﴿وَأِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي إن أنعمنا عليه في الدنيا فله عندنا في الآخرة قرابة وحسن مرجع.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۗ أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ هَذَا نُفُوسًا حَيًّا وَمَوْتًا وَأَعْيُنًا نَّظُرًا ۗ وَرَجُلًا وَابْنًا مَّوَدَّةَ بَيْنٍ ۗ وَتُحَنَّنُ بِهِ الرِّجَالُ عَلَىٰ الْوَالِدِ ۗ إِنَّكَ لَنَدِيمٌ فَاعِلٌ ۗ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ أمر للنبي ﷺ بالاعتداء بهم في الصبر على المكاره. ﴿أَيُّوبَ﴾ بدل. ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر ﴿أَنِّي﴾ بكسر الهمزة أي: قال. قال الفراء: وأجمعت القراءة على أن قرؤوا: ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون والتخفيف. النحاس: وهذا غلط وبعده مناقضة وغلط أيضا؛ لأنه قال: أجمعت القراءة على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ: ﴿بِنُصْبٍ﴾ بفتح النون والصاد^(٢)، فغلط على أبي جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون والصاد^(٣)؛ كذا حكاه أبو عبيد وغيره وهو مروى عن الحسن. فأما ﴿نُصْبٍ﴾ فقرأه عاصم الجحدري ويعقوب الحضرمي. وقد رويت هذه القراءة عن الحسن وقد حكي «نُصْبٍ» بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر. وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النصب فنصب ونُصْبٍ كحزن وحزن. وقد يجوز أن يكون نصب جمع نصب كوئْنٌ ووئْنٌ. ويجوز أن يكون نصب بمعنى نصب حذف منه الضمة، فأما: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ﴾ [المائدة: ٣] فقيل: إنه جمع نصاب. وقال أبو عبيدة وغيره: النصب الشر والبلاء. والنصب التعب والإعياء. وقد قيل في معنى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي ما يلحقه من وسوسته لا غير. والله أعلم. ذكره النحاس. وقيل: إن النصب ما أصابه في بدنه، والعذاب ما أصابه في ماله؛ وفيه بعد. وقال المفسرون^(٤): إن أيوب كان

(١) ذكرها الماوردي (٥/ ٩٩، ١٠٠) في النكت والعيون.

قلت: ولم أجد قول ابن عباس مستندا.

(٢، ٣) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص ١٦٧).

(٤) ها هي الإسرائيليات تظل للمرة الثالثة في تفسير هذه السورة بعد ذكر الإسرائيليات والموضوعات في قصة داود وسليمان - عليهما السلام، فالإسرائيليات هنا أشد وأثقل.

* ومنها تسليط الشيطان على نبي الله أيوب - عليه السلام!!

كيف والله تعالى قد قضى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وإذا كان هذا في حق آحاد المؤمنين، فكيف بأبناء الله والمرسلين؟

* ثم الشيطان له موقف في السماء السابعة؟! كيف وقد أقر المصنف في سورة «الصفات» أن الشياطين كانت ترمى إذا حاولت الاستماع والتصنت للسماء!؟.

* ثم الشيطان يسلط على رزق الله للأنبياء، وكيف ولا سلطان له على ذلك؟ أما ذكرت قصة البخلاوي في الوكالة، عن أبي هريرة أنه أمسك بالشيطان يريد السرقة من مال الصدقة!؟

* وما هذا المرض الذي يصاب به النبي حتى يلقى على المزابل ويحترق جسده!؟.

* وامرأة النبي يخبرها إبليس أنه إله الأرض!؟

قلت: وقد جزم أبو شهبة - رحمه الله - (ص ٢٧٥، ٢٧٨) بأن هذه أباطيل، وما زاد مرض أيوب عليه السلام عن مجرد بعض أوجاع المفاصل التي لا تجعل الناس ينفرون منه؛ لأن الأنبياء يبعثون من أوساط الناس حسبا=

روميا من البشية (١) وكنته أبو عبد الله في قول الواقدي؛ اصطفاه الله بالنبوة، وأتاه جملة عظيمة من الثروة في أنواع الأموال والأولاد. وكان شاكرا لأنعم الله؛ مواسيا لعباد الله، برا رحيمًا. ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر. وكان لإبليس موقف من السماء السابعة في يوم من الأيام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له أو قيل له عنه: أقدرت من عبدي أيوب على شيء؟ فقال: يا رب وكيف أقدر منه على شيء، وقد ابتليته بالمال والعافية، فلو ابتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله، ولخرج عن طاعتك، قال الله: قد سلطتك على أهله وماله. فانحط عدو الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم، وقال قائل منهم: أكون إعصارا فيه نار أهلك ماله فكان؛ فجاء أيوب في صورة قيم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال: الحمد لله هو أعطاه وهو منعه. ثم جاء قصره بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب. قال: يا رب سلطني على بدنه. قال: قد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره، فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها فصار في جسده نائل فحكها بأظفاره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه. وقال عند ذلك: ﴿مَسْنِي الشَّيْطَانُ﴾. ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب، فمكث كذلك ثلاث سنين. فلما غلبه أيوب اعترض لامرأته في هيئة أعظم من هيئة بني آدم في القدر والجمال، وقال لها: أنا إله الأرض، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله وهم عندي. وعرض لها في بطن الوادي ذلك كله في صورته؛ أي أظهره لها، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضرها إن عافاه الله.

وذكروا كلاما طويلا في سبب بلائه ومراجعتة لربه وتبرمه من البلاء الذي نزل به، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك واعترضوا عليه، وقيل: استعان به مظلوم فلم ينصره فابتلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوما الناس فمنع فقيرا الدخول فابتلي بذلك. وقيل: كان أيوب يغزو ملكا وكان له غنم في ولايته، فدهانه لأجلها بترك غزوه فابتلي. وقيل: كان الناس يتعدون امرأته ويقولون: نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال: ﴿مَسْنِي الشَّيْطَانُ﴾. وامرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنة لوط. وقيل: كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف ابن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله. قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة يوما من العام، فقول باطل؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلى، ويعلو

= ونسبًا فأين كانت عشيرته لتبوع امرأته ضفرتها؟ وأين أتباعه والمؤمنون به؟

ونقل قول الألويسي (٢٣ / ٢٠٨)، وابن العربي، والطبري، واللقاني وغيرهم في رد هذه الأباطيل التي لا تصح.

قلت: ونسبة الأذي للشيطان كنسبة النسيان إليه كقول فتى موسى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] وهكذا درج الأنبياء نسبه إلى غير الله تعالى تأديبا معه سبحانه كقول الخضر ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعْبِيهَا﴾ وقول إبراهيم: ﴿وَأِذَا مَرَّضْتُ﴾ وقوله ﷺ: «والشر ليس إليك».

(١) قرية بين دمشق وأذرعات. معجم البلدان (٤٠٢ / ١) لياقوت الحموي.

إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فيقف موقف الخليل؟! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم. وأما قولهم: إن الله تعالى قال له: هل قدرت من عبدي أيوب على شيء، فباطل قطعاً؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جنس إبليس الملعون؛ فكيف يكلم من تولى إضلالهم؟! وأما قولهم: إن الله قال: قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن في القدرة، ولكنه بعيد في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخ في جسده حين سلطه عليه فهو أبعده، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقر له - لعنة الله عليه - عين بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهلهم وأنفسهم. وأما قولهم: إنه قال لزوجته: أنا إله الأرض، ولو تركت ذكر الله وسجدت أنت لي لعافيتي، فاعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلهها في الأرض، وأنه يسجد له، وأنه يعافي من البلاء، فكيف أن تستريب زوجة نبي؟! ولو كانت زوجة سوادي أو فدم^(١) بربري ما ساغ ذلك عندها. وأما تصويره الأموال والأهل في واد للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال، ولا هو في طريق السحر فيقال: إنه من جنسه. ولو تصور لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهي فوقنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحر وحديثه وجريه بين الناس وتصويره.

قال القاضي: والذي جراهم على ذلك وتذرعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فلما رآوه قد شكوا مس الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال. وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرا وشرا في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريك له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشر لا ينسب إليه ذكرا، وإن كان موجودا منه خلقا؛ أدبا أدبنا به، وتحميدا علمناه. وكان من ذكر محمد ﷺ لربه به قول من جملة: «والخير في يديك والشر ليس إليك»^(٢) على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِرَ النَّفْسُ﴾ [الشعراء: ٨٠] وقال الفتى للكليم: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وأما قولهم: انه استعان به مظلوم فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادرا على نصره، فلا يحل لأحد تركه فيلام على أنه عصي وهو منزه عن ذلك، أو كان عاجزا فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم: إنه منع فقيرا من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطل عليه وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه. وأما قولهم: إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل: داهن ولكن قل: دارى. ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام. قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضى الله عنه: ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] والثانية في: «ص» ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بيننا أيوب يغتسل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب...»^(٣) الحديث. وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا

(١) القَدَمُ: العبي عن الحجة والكلام عن قلة فهم مع ثقل ورخاوة. اللسان «قدم»

(٢) صحيح: مسلم (٧٧١) في صلاة المسافرين، عن علي - رضي الله عنه .

(٣) صحيح: وقد سبق قريبا عند البخاري .

ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أي لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتة؛ فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً^(١)، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً. وفي الصحيح واللفظ للبخاري: أن ابن عباس قال: يا معشر المسلمين تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم^(٢)، وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءة التوراة.

قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الركض: الدفع بالرجل. يقال: ركض الدابة وركض ثوبه برجله. وقال المبرد: الركض التحريك؛ ولهذا قال الأصمعي: يقال: ركضت الدابة ولا يقال: ركضت هي؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجله ولا فعل لها في ذلك. وحكى سيبويه: ركضت الدابة فركضت مثل جبرت العظم فجبر وحزنته فحزن؛ وفي الكلام إضمار، أي: قلنا له: ﴿ارْكُضْ﴾ قال الكسائي: وهذا لما عافاه الله. ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: فركض فنبعت عين ماء فاغتسل به، فذهب الداء من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه. وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية، فاغتسل من إحدهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه^(٣). ونحوه عن الحسن ومقاتل؛ قال مقاتل: نبعت عين حارة واغتسل فيها فخرج صحيحاً، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبا. وقيل: أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء في جسده. والمغتسل الماء الذي يغتسل به؛ قاله القتيبي. وقيل: إنه الموضع الذي يغتسل فيه؛ قاله مقاتل. الجوهرى: واغتسلت بالماء، والغسول الماء الذي يغتسل به، وكذلك المغتسل، قال الله تعالى: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ والمغتسل أيضا الذي يغتسل فيه، والمغسل والمغسل بكسر السين وفتحها مغسل الموتى والجمع المغاسل. واختلف كم بقي أيوب في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات. وقال وهب بن منبه: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وترك يوسف، في السجن سبع سنين، وعذب باختنصر وحول في السبع سبع سنين. ذكره أبو نعيم. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمان عشرة سنة. رواه أنس مرفوعاً فيما ذكره الماوردي.

قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوب، وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمان عشرة سنة^(٤). وذكر الحديث القشيري. وقيل: أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ تقدم الكلام فيه في «الأنبياء»^(٥). ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي :

(١) هذا ما أشرت إليه من قول أي شبهة - رحمه الله . (٢) صحيح : وقد سبق

(٣) صحيح بنحوه وهو غريب المتن : الطبري (٢٣/ ١٧٠) في تفسيره.

(٤) صحيح الإسناد: وهو المعتمد هنا : ابن حبان (٢٨٩٨) في صحيحه ، والحاكم (٤١/٥) في المستدرک ، وأبو نعيم

(٣/ ٣٧٤ ، ٣٧٥) في حلية الأولياء ، وصححه الألباني (١٧) في الصحيحة .

(٥) عند تفسير الآية (٨٤) .

نعمة منا. ﴿وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: عبرة لذوي العقول.

﴿وَحُذِّبِيكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبَ بِهِ وَلَا تَحْنَثُ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقَرَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٨﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: كان أيوب حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال:

أحدها: ما حكاه ابن عباس^(١): أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته ل مداواة أيوب، فقال: أدويه على أنه إذا برئ قال: أنت شفيتي، لا أريد جزاء سواه. قالت: نعم، فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها. وقال: ويحك ذلك الشيطان. الثاني: ما حكاه سعيد بن المسيب^(٢)، أنها جاءت بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها. الثالث: ما حكاه يحيى بن سلام^(٣) وغيره: أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه وأنه يبرأ، فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفي مائة. الرابع: قيل^(٤): باعت ذوابها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف ليضربنها، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثا فيضرب به، فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة. وقيل: الضغث: قبضة حشيش مختلطة الرطب بالبابس. وقال ابن عباس: إنه إنكال النخل الجامع بشماريخه^(٥).

الثانية: تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا. وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعشكول من عشكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لثلاث ضرب امرأته فوق حد الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حد الأدب؛ ولهذا قال عليه السلام: «واضربوهن ضربا غير مبرح» على ما تقدم في «النساء» بيانه^(٦).

الثالثة: واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده؟ فروى عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ابن العربي. وحكي عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب. وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باق، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة بر. وروى نحوه الشافعي. وروى نحوه عن النبي ﷺ في المقعد الذي حملت منه الوليدة، وأمر أن يضرب بعشكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة. وقال القشيري: وقيل لعطاء: هل يعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع. ابن العربي: وروى عن عطاء أنها لأيوب خاصة. وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك: من حلف ليضربن عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبر. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرَعًا وَمِنْهَا جَاءَ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: إن ذلك منسوخ بشريعتنا. قال ابن المنذر: وقد روينا عن علي أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: ﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾

(١) وهذا لا يصح أبداً .

(٥) قول ابن عباس: (حزمة) كما عند الطبري (٢٣/ ١٧٢) في تفسيره من طريق علي بن أبي طلحة .

(٦) صحيح: وقد تقدم عند الآية (٣٤) .

[النور: ٢] وهذا مذهب أصحاب الرأي. وقد احتج الشافعي لقوله بحديث، وقد تكلم في إسناده؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي احتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال: حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه اشتكى رجل منهم حتى أضنى^(١)، فعاد جلدة على عظم، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش^(٢) لها فوق عينيها، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال: استفتوا لي رسول الله ﷺ؛ فإنني قد وقعت على جارية دخلت علي. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به؛ لو حملناه إليك لتفسخت^(٣) عظامه، ما هو إلا جلد على عظم؛ فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمراخ^(٤) فيضربوه بها ضربة واحدة^(٥). قال الشافعي: إذا حلف ليضربن فلانا مائة جلدة، أو ضربا ولم يقل: ضربا شديدا ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنت. قال ابن المنذر: وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضره ضربا خفيفا فهو بار عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي. وقال مالك: ليس الضرب إلا الضرب الذي يؤلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنُثْ﴾ دليل على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حكما إذا كان متراخيا. وقد مضى القول فيه في «المائدة»^(٦) يقال: حنت في يمينه يحنت: إذا لم يبر بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة، أي: فاضرب لا تحنت.

الخامسة: قال ابن العربي: قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ يدل على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارة، وإما كان البر والحنت. والثاني: أن يكون صدر منه نذر لا يمين وإذا كان النذر معينا فلا كفارة فيه عند مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: في كل نذر كفارة.

قلت: قوله: إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقي في البلاء ثمان عشرة سنة، كما في حديث ابن شهاب، قال له صاحبه: لقد أذنت ذنبا ما أظن أحدا بلغه. فقال أيوب ﷺ: ما أدري ما تقولان، غير أن ربي عز وجل يعلم أنني كنت أمر على الرجلين يتزاعمان فكل يحنف بالله، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلي، فأكفر عن إيمانهم إرادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق فنادى ربه ﴿أَأَنِّي مَسْنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وذكر الحديث^(٧). فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفر عن غيره

(١) أضنى: لزم الفراش من التعب. اللسان «ضنا» .

(٢) الهش: اللين والرخاوة. اللسان «هشش» .

(٣) الفسخ: زوال المفصل عن موضعه. اللسان «فسخ» .

(٤) الشمراخ: العنكال الذي عليه البسر وأصله في العذق وقد يكون في العنب - اللسان .

(٥) صحيح: أبو داود (٤٤٧٢) في الحدود وصححه الألباني .

(٦) عند الآية (٨٩) .

(٧) صحيح: وقد سبق .

بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة.

السادسة: استدل بعض جهال المتزهدة؛ وطغام المتصوفة بقوله تعالى لا يوب: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ على جواز الرقص . قال أبو الفرج الجوزي: وهذا احتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحا كان لهم فيه شبهة، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء. قال ابن عقيل: أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازا من الرقص ولئن جاز قوله سبحانه لموسى: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠] دلالة على ضرب المحاد بالقضبان نعوذ بالله من الفلاعب بالشرع. وقد احتج بعض قاصريهم بأن رسول الله ﷺ قال لعلي: «أنت مني وأنا منك»^(١) فحجل، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»^(٢) فحجل. وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»^(٣) فحجل. ومنهم من احتج بأن الحبشة زفت والنبي ﷺ ينظر إليهم. والجواب: أما الحجل فهو نوع من المشي يفعل عند الفرج فأين هو والرقص؟! وكذلك زفن الحبشة نوع من المشي يفعل عند اللقاء للحروب.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ أي: على البلاء ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: تواب رجاع مطيع. وسئل سفيان عن عبيد بن ابتلى أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبيد؛ أحدهما صابر، والآخر شاكرا ثناء واحدا؛ فقال في وصف أيوب: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقال في وصف سليمان: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

قلت: وقد رد هذا الكلام صاحب «القوت» واستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغني وذكر كلاما كثيرا شيد به كلامه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب «نهج العباد ومحجة السالكين والزهاد». وخفي عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما ابتلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده. وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتحنوا وفتنوا. فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال ولا مقال، فقد اجتمع مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضا. وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان. والله أعلم. وفي حديث ابن شهاب^(٤) عن النبي ﷺ: «إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان في جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ثم أقبل يمشي إلى منزله وراث^(٥) على امراته فأقبلت حتى لقيته وهي لا تعرفه فسلمت عليه وقالت: أي يرحمك الله، هل رأيت هذا الرجل المبتلى؟ قال: من هو؟ قالت: نبي الله أيوب، أما والله ما رأيت أحدا قط أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال فإني أيوب، وأخذ ضغثا فضربها به» فزعم ابن شهاب أن ذلك الضغث كان ثماما^(٦). ورد اللهم إليه أهله

(١) - ٣ صحاح : لكن دون قوله (حجل) فإنه من وضع هؤلاء الزنادقة، وقد سبقت.

(٤) صحيح : وقد سبق ، وانظر : الطبري (٢٣ / ٧١) في تفسيره بسند صحيح .

(٥) الريث : الإبطاء . اللسان « ريث » .

(٦) الثمام : شجر ونبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، وربما حشى به وسد به خصاص البيوت . اللسان « ثمم » .

ومثلهم معهم، فأقبلت سحابة حتى سجلت^(١) في أندر^(٢) قمحه ذهباً حتى امتلأ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أندر شعيره وقطانيه^(٣) فسجلت فيه ورقاً^(٤) حتى امتلأ.

﴿وَأَذْكَرَ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿وَأَنْهَمُ عَبْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكَرَ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قرأ ابن عباس: «عبدنا» بإسناد صحيح^(٥)؛ رواه ابن عيينة عن عمرو عن عطاء عنه، وهي قراءة مجاهد وحמיד وابن محيصن وابن كثير؛ فعلى هذه القراءة يكون ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بدلاً من ﴿عَبَادَنَا﴾ و﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطف. والقراءة بالجمع أئين، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، ويكون ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وما بعده على البدل. النحاس: وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت: رأيت أصحابنا زيدا وعمرا وخالدا، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب. وإذا قلت: رأيت صاحبنا زيدا وعمرا وخالدا، فزيد وحده بدل وهو صاحبنا، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسوا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هذا، غير أنه قد علم أن قوله: ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ داخل في العبودية. وقد استدل بهذه الآية من قال: إن الذبيح إسحاق لا إسماعيل، وهو الصحيح^(٦) على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام بمولد النبي عليه السلام». ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ قال النحاس: أما ﴿الْأَبْصَارِ﴾ فمفتق على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم. وأما ﴿الْأَيْدِي﴾ فمختلف في تأويلها؛ فأهل التفسير يقولون: إنها القوة في الدين. وقوم يقولون: ﴿الْأَيْدِي﴾ جمع يد وهي النعمة؛ أي هم أصحاب النعم؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم. وقيل: هم أصحاب النعم والإحسان؛ لأنهم قد أحسنوا وقدموا خيرا. وهذا اختيار الطبري. ﴿إِنَّهُمْ عَبْدَنَا لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي الذين اصطفاهم من الأنداس واختارهم لرسالته، ومصطفين جمع مصطفى والأصل مصطفى، وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢] ﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خير. وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن وعيسى الثقفي ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ بغير ياء في الوصل والوقف على معنى أولي القوة في طاعة الله. ويجوز أن يكون كمنى قراءة الجماعة وحذف الياء تخفيفا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قراءة العامة: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ منونة وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر: «بخالصة ذكري الدار» بالإضافة^(٧) فمن نون خالصة فـ ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بدل منها؛ التقدير إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها ويرغبوا فيها ويرغبوا الناس فيها. ويجوز أن يكون «خالصة» مصدرا لخلص و﴿ذِكْرَى﴾ في موضع رفع بأنها فاعلة، والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكري الدار؛ أي: تذكير

(١) السُّجْلُ : الصب . اللسان «سجل» .

(٢) أَنْدَرُ : يندر - وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام . اللسان «بدر» .

(٣) الْقَطَانِيَّةُ : الجيوب التي تدخر كالحمص والعدس . اللسان «قطن» .

(٤) الْوَرَقُ : الفضة . اللسان «ورق» . (٥) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص ١٦٧) .

(٦) بل هو إسماعيل - عليه السلام - كما سبق . (٧) قراءة متواترة : كما في تقريب النشر (ص ١٦٧) .

الدار الآخرة. ويجوز أن يكون «خالصة» مصدرا لأخلصت فحذفت الزيادة، فيكون ﴿ذكري﴾ على هذا في موضع نصب، التقدير: بأن أخلصوا ذكري الدار. والدار يجوز أن يراد بها الدنيا؛ أي ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]. ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها. ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص، والذكري مفعول به أضيف إليه المصدر؛ أي: بإخلاصهم ذكري الدار. ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص؛ أي: بأن خلصت لهم ذكري الدار، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدم. وقال ابن زيد: معنى أخلصناهم، أي: بذكر الآخرة؛ أي: يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا^(١). وقال مجاهد: المعنى إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم^(٢).

﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَنَابٍ ﴿٣٣﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٣٤﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٣٥﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْظَّرْفِ أَنْزَابٌ ﴿٣٦﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزُقْنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٣٨﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ وقد مضى ذكر ﴿الْيَسَعَ﴾ في «الأنعام» وذكر «ذي الكفل» في «الأنبياء». ﴿وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي: ممن اختير للنبوة. ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يذكرون به في الدنيا أبدا. ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَنَابٍ﴾ أي: لهم مع هذا الذكر الجميل في الدنيا حسن المرجع في القيامة. ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ والعدن في اللغة الإقامة؛ يقال: عدن بالمكان إذا أقام. وقال عبد الله بن عمر: إن في الجنة قصرا يقال له: عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة^(٣) لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد^(٤). ﴿مَفْتَحَةٌ﴾ حال ﴿لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ رفعت الأبواب لأنه اسم ما لم يسم فاعله. قال الزجاج: أي مفتحة لهم الأبواب منها. وقال الفراء: مفتحة لهم أبوابها. وأجاز الفراء «مفتحة لهم الأبواب» بالنصب. قال الفراء: أي مفتحة الأبواب ثم جئت بالتنوين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه:

وَتَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذَنَابِ عَيْشٍ أَجَبَ الظَّهْرَ لَيْسَ لَهُ سَنَامٌ

وإنما قال: ﴿مَفْتَحَةٌ﴾ ولم يقل: مفتوحة؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس. قال الحسن: تُكَلِّمُ: انفتحي فتفتتح انغلقي فتغلق^(٥). وقيل: تفتح لهم الملائكة الأبواب.

(١) حسن: الطبري (٢٣/ ١٧٩) في تفسيره، واختاره.

(٢) ضعيف: فيه ابن جريج، عن ابن عباس، وهو منقطع، انظر: السابق (٢٣/ ١٧٥).

(٣) حبرة: على وزن عنبه، ضرب (نوع) من البرود البمانية مخطط. اللسان «حبر».

(٤) ضعيف: رواه ابن أبي حاتم مرفوعا، وفيه عبد الله بن مسلم بن هرمز، وقد ضعفه ابن معين كما في المعنى في الضعفاء

(١/ ٣٥٧)، ورواه الطبري (١٠/ ٨٢) في تفسيره موقوفاً بسند رجاله ثقات، وكذا رواه ابن أبي شيبة (٤/ ٢١٠).

(٥) فيه من لم أهرقه: الطبري (٢٣/ ١٧٨) في تفسيره، وعزه السيوطي (٥/ ٧٩٤) في الدرر لعبد بن حميد.

قوله تعالى: ﴿مُتَكِّينَ فِيهَا﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي يدعون في الجنات متكئين فيها. ﴿بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي بالوان الفواكه
 قوله تعالى: ﴿وَشْرَابٍ﴾ أي وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه.
 قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى في «الصفات» (١). ﴿أَنْزَابٍ﴾ أي على سن واحد. وميلاد امرأة واحدة، وقد تساوين في الحسن والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة. قال ابن عباس: يريد الآدميات (٢). و﴿أَنْزَابٍ﴾ جمع ترب وهو نعت لقاصرات؛ لأن ﴿قَاصِرَاتُ﴾ نكرة وإن كان مضافا إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال:

من القاصرات الطَّرْفَ لَوْ دَبَّ مُحُولٌ من الذَّرِّ فوقَ الإِتْبِ منها لَأَثَرًا

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا توعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاء الذي وعدتم به. وقراءة العامة بالتاء، أي: ما توعَدُونَ أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر (٣)، وهي قراءة السلمي واختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ فهو خبر. ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: في يوم الحساب، قال الأعشى:

المُهَيَّبِينَ مَا لَهُمْ لِرِمَانِ السُّوءِ حَتَّى إِذَا أَفَاقَ أَفَاقُوا

أي: في زمان السوء. ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٨] وقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ شَرًّا مَآبٍ﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَبَسَ الْمِهَادُ ﴿٤٥﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ
 وَغَسَّاقٌ ﴿٤٦﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلَيْهِ أَزْوَاجٌ ﴿٤٧﴾ هَذَا فَوَجَّحَ مُتَّحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِتْمَمَ صَلَواتِ النَّارِ ﴿٤٨﴾
 قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَمُرْجَأٍ بِكُمْ أَنتُمْ قَدْ مَثُوهُ لَنَا فَنَبَسَ الْقَرَارُ ﴿٤٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
 ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرًّا مَآبٍ﴾ ﴿هَذَا﴾ لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين قال الزجاج: ﴿هَذَا﴾ خبر ابتداء محذوف، أي: الأمر هذا، فيوقف على ﴿هَذَا﴾ قال ابن الأنباري: ﴿هَذَا﴾ وقف حسن. ثم تبتدىء ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم الذين كذبوا الرسل. ﴿لَشَرًّا مَآبٍ﴾ أي: منقلب يصيرون إليه. ثم بين ذلك بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَنَبَسَ الْمِهَادُ﴾ أي: نبس ما مهدوا لأنفسهم، أو نبس الفراش لهم. ومنه مهد الصبي. وقيل: فيه حذف، أي: نبس موضع المهاد. وقيل: أي: هذا الذي وصفت لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على ﴿هَذَا﴾ أيضا.

قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ ﴿هَذَا﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿حَمِيمٌ﴾ على التقديم والتأخير؛ أي: هذا حميم وغساق فليذوقوه. ولا يوقف على ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ويجوز أن يكون

(١) عند الآية (٤٨).

(٢) التكت العيون (٢/ ٥٠٠) بنحوه للماوردى دون عزو.

(٣) قراءة متواترة: تقرب النشر (ص ١٦٧).

﴿هَذَا﴾ في موضع رفع بالابتداء و﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في ﴿هَذَا﴾ فيوقف على ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ويرتفع ﴿حَمِيمٌ﴾ على تقدير هذا حميم. قال النحاس: ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا، وحميم وغساق إذا لم تجمعهما خبراً فرفعهما على معنى هو حميم وغساق. والفراء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غساق وأنشد:

حَتَّىٰ إِذَا مَا أَضَاءَ الصُّبْحُ فِي غَلَسٍ وَغُودِرَ الْبَقْلُ مَلْوَى وَمَحْضُودٌ

وقال آخر:

لَهَا مَتَاعٌ وَأَعْوَانٌ غَدَوْنَ بِهِ قَتْبٌ وَغَرَبٌ إِذَا مَا أُفْرِغُ أَنْسَحَقًا

ويجوز أن يكون ﴿هَذَا﴾ في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ كما تقول: زيدا اضربه. والنصب في هذا أولى فيوقف على ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ وتبتدئ ﴿حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ﴾ على تقدير الأمر حميم وغساق. وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في «وَعَسَاقٌ». وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي: «وَعَسَاقٌ» بالتشديد، وهما لغتان بمعنى واحد في قول الأخفش. وقيل: معناهما مختلف؛ فمن خفف فهو اسم مثل عذاب وجواب وصواب، ومن شدد قال: هو اسم فاعل نقل إلى فعال للمبالغة، نحو ضراب وقتال وهو فعال من غَسَقَ يَغْسُقُ فهو غَسَاقٌ وغساق. قال ابن عباس: هو الزمهرير يخوفهم ببرده^(١). وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده^(٢). وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحره. وقال عبد الله بن عمرو: هو قيق غليظ لو وقع منه شيء بالشرق لأنت من في المغرب، ولو وقع منه شيء في المغرب لأنت من في المشرق^(٣). وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزناة ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنتن^(٤). وقال محمد بن كعب: هو عصارة أهل النار^(٥). وهذا القول أشبه باللغة؛ يقال: غسق الجرح يغسق غسقا: إذا خرج منه ماء أصفر؛ قال الشاعر:

إِذَا مَا تَذَكَّرْتُ الْحَيَاةَ وَطَيْبَهَا إِلَيَّ جَرَى دَمْعٌ مِنَ اللَّيْلِ غَاسِقُ

أي بارد. ويقال: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار. وقال السدي: الغساق: الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم^(٦). وقال ابن زيد: الحميم دموع أعينهم، يجمع في حياض النار فيسقونه، والصديد الذي يخرج من جلودهم^(٧). والاختيار على هذا «وَعَسَاقٌ» حتى يكون مثل سيال. وقال كعب: الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذي حمة من عقرب وحية^(٨). وقيل: هو مأخوذ من الظلمة والسواد. والغسق: أول ظلمة الليل، وقد غسق الليل يغسق: إذا أظلم. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لَوَأْنِ دَلُوا مِنْ غَسَاقٍ يَهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لِأَنْتِ أَهْلُ الدُّنْيَا»^(٩).

قلت: وهذا أشبه على الاشتقاق الأول كما بينا، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه

(١ - ٨) ذكرها البغوي (٧/ ٩٩، ١٠٠) في تفسيره، والشوكاني (٦/ ٢٥٦) في فتح القدير بغير إسناد، إلا أن الاسناد عند الطبري (٢٣/ ١٨٠) في تفسيره عن قتادة، وابن زيد وذكره عن كعب (٢٣/ ١٨١) في تفسيره.

وبسند ضعيف عن ابن عمرو حيث فيه ابن لهيعة، والراوي عنه غير العبادلة.

(٩) ضعيف: الترمذي (٢٥٨٤) في صفة جهنم، وضعفه الألباني هناك بسبب شديد بن سعد، وعند الطبري

(٣٠٠٣٣) من طريق دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم وهي رواية ضعيفة أيضاً ولا تصح.

أسود مظلماً فيصح الاشتقاقان . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ قرأ أبو عمرو ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾^(١) جمع أخرى مثل الكُبرى والكُبرى .
 الباقون: ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ مفرد مذكر . وأنكر أبو عمرو : « أَخْرَجْنَا » لقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: لا يخبر بواحد
 عن جماعة . وأنكر عاصم الجحدري ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ قال: ولو كانت ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ لكان من شكلها . وكلا
 الردين لا يلزم ، والقراءتان صحيحتان . ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ أي وعذاب آخر سوى الحميم والغساق . ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾
 قال قتادة: من نحوه . قال ابن مسعود: هو الزمهرير . وارتفع ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ بالابتداء و﴿أَزْوَاجًا﴾ مبتدأ ثان
 و﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ خبره والجملة خبر ﴿أَخْرَجْنَا﴾ . ويجوز أن يكون ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ مبتدأ والخبر مضمرة دل عليه ﴿هَذَا
 فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ لأن فيه دليلاً على أنه لهم ، فكانه قال: ولهم آخر ويكون ﴿مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾
 صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و﴿أَزْوَاجًا﴾ مرفوع بالظرف . ومن قرأ ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ أراد وأنواع من
 العذاب أُخْرَجَ ، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناساً فجمع لاختلاف
 الأجناس . أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهرياً ثم جمع كما قالوا: شابت مفارقة . أو على أنه
 جمع لما في الكلام من الدلالة على جواز الجمع ؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع
 في قوله: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ والضمير في ﴿شَكْلِهِ﴾ يجوز أن يعود على الحميم أو الغساق .
 أو على معنى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ﴾ ما ذكرنا ، ورفع ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ على قراءة الجمع بالابتداء و﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾
 صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدأ ﴿أَزْوَاجًا﴾ خبر المبتدأ . ولا يجوز أن يحمل على تقدير: ولهم آخر
 و﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ صفة لآخر و﴿أَزْوَاجًا﴾ مرتفعة بالظرف كما جاز في الأفراد ؛ لأن الصفة لا ضمير فيها
 من حيث ارتفع ﴿أَزْوَاجًا﴾ مفرد ؛ قاله أبو علي . و﴿أَزْوَاجًا﴾ أي أصناف وألوان من العذاب . وقال
 يعقوب: الشكل بالفتح المثل والكسر الدل^(٢) .

قوله تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ قال ابن عباس^(٣) : هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل
 بعدهم الأتباع ، قالت الخزنة للقادة ﴿هَذَا فَوْجٌ﴾ يعني الأتباع والفوج الجماعة ﴿مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أي داخل
 النار معكم ؛ فقالت السادة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾
 قوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي لا اتسعت منازلهم في النار . والرحب السعة ، ومنه رحبة المسجد
 وغيره . وهو في مذهب الدعاء فلذلك نصب ؛ قال النابغة :

لَا مَرْحَبًا بَعْدَ وَلَا أَهْلًا بِي إِذْ كَانَ تَفْرِيقُ الْأَحْبَةِ فِي غَدِّ

قال أبو عبيدة : العرب تقول: لا مرحباً بك ؛ أي: لا رَحِبَتْ عَلَيْكَ الْأَرْضُ ولا اتسعت . ﴿إِنَّهُمْ
 صَالُوا النَّارَ﴾ قيل: هو من قول القادة ، أي إنهم صالوا النار كما صليناها . وقيل: هو من قول الملائكة
 متصل بقولهم: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ و﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ هو من قول الأتباع ، وحكى النقاش:
 إن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر ، والفوج الثاني أتباعهم بيدر ، والظاهر من الآية أنها
 عامة في كل تابع ومتبوع . ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا﴾ أي: دعوتونا إلى العصيان ﴿فَبَشِّرْ الْقَارُونَ﴾ لنا ولكم

(١) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص ١٦٧) .

(٢) شكل: يقال هذا للمرأة ذات الدلال ، أي: حسن الحديث ، وحسن المزاج ، وحسن الهيئة . اللسان «شكل» .

(٣) ذكره البغوي (٧/ ٩٩) في تفسيره غير مسند .

(٤) صحيح : الهشيمي (٧/ ١٠٠) في المجمع وعزاه للطبراني ، وقال: ورجاله رجال الصحيح .

﴿قَالُوا﴾ يعني الاتباع ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ قال الفراء: من سوغ لنا هذا وسنه ، وقال غيره: من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وعذابا بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفا. وقال ابن مسعود: معنى: ﴿عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ الحيات والافاعي^(١). ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الاعراف: ٣٨].

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ أَلتَّخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمَرَ زَاعَتٌ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني أكابر المشركين ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد ﷺ؛ يقول أبو جهل: أين بلال؟ أين صهيب؟ أين عمار؟ أولئك في الفردوس وأعجبا لأبي جهل مسكين؛ أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال:

وَنُورًا أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رِجْلِي مِنْهُ أَسْوَدٌ مُظْلِمٌ

﴿أَلتَّخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قال مجاهد: ألتخذناهم سخريا في الدنيا فأخطأنا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ فلم نعلم مكانهم^(٢). قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا؛ اتخذوهم سخريا، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا محقرة لهم^(٣). وقيل: معنى ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ أي أهم معنا في النار فلا نراهم. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمر وحمزة والكسائي يقرؤون: «من الأشرار اتخذناهم» بحذف الألف في الوصل^(٤). وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون: ﴿أَلتَّخَذْتَهُمْ﴾ بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استغنى عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على ﴿الْأَشْرَارِ﴾ لأن ﴿أَلتَّخَذْتَهُمْ﴾ حال. وقال النحاس والسجستاني: هو نعت لرجال. قال ابن الأباري: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضيا ولا مستقبلا. ومن قرأ: ﴿أَلتَّخَذْتَهُمْ﴾ بقطع الألف وقف على ﴿الْأَشْرَارِ﴾ قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى التسويخ والتعجب. ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل. وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «سُخْرِيًّا» بضم السين. الباقون بالكسر^(٥). قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء، ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدم. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ﴿لَحَقٌّ﴾ خبر إن و﴿تَخَاصُمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف بمعنى هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلا من حق. ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلا من ذلك على الموضع، أي: إن تخاصم أهل النار في النار لحق. يعني قولهم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ الآية وشبهه من قول أهل النار.

(١) انظر: الطبري (٢٣/ ١٥٨) في تفسيره والدر المنثور (٥/ ٥٩٥) للسيوطي.

(٢) ضعيف: فيه ليث، عن مجاهد هو ضعيف، وانظر: السابق.

(٣) وهو عن قتادة كما عند الطبري (٢٣/ ١٨٦) في تفسيره.

(٤، ٥) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص ١٦٧، ١٤٧) على الترتيب.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
الْعَزِيزُ الْقَهَّارُ ﴿٣٣﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٣٥﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ
يَخْتَصِمُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ أي: مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدم. ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ﴾ أي
معبود ﴿إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بالرفع على النعت
وإن نصبت الأول نصبته. ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح. ﴿الْعَزِيزُ﴾ معناه المنيع الذي
لا مثل له. ﴿الْقَهَّارُ﴾ السَّارِ لذنوب خلقه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: وقل لهم يا محمد: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ما أنذركم به من الحساب
والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغي أن يستخف به. قال معناه قتادة. نظيره قوله تعالى: ﴿عَمَّ
يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبا: ١]. وقال ابن عباس ومجاهد وقاتدة: يعني القرآن الذي أنبأكم به
خبر جليل (١). وقيل: عظيم المنفعة ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملائكة هم الملائكة في قول ابن
عباس (٢) والسدي اختصموا في أمر آدم حين خلق ف ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وقال
إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] وفي هذا بيان أن محمدا ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا
يتصور إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المعجزة على صدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا
صدقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٣٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٣٨﴾﴾. وقول ثان رواه أبو
الأشهب عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «سألني ربي فقال يا محمد فيم اختصم الملائكة الأعلى
قلت: في الكفارات والدرجات. قال: وما الكفارات؟ قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات،
وإسباغ الوضوء في السبرات، والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال: وما الدرجات؟
قلت: إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام» أخرجه الترمذي بمعناه عن ابن
عباس، وقال فيه: حديث غريب (٣). وعن معاذ بن جبل أيضا وقال: حديث حسن صحيح (٤).

وقد كتبناه بكماله في «كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وأوضحنا إشكاله والحمد لله. وقد
مضى في «يس» القول في المشي إلى المساجد، وأن الخطأ تكفر السيئات، وترفع الدرجات. وقيل:
الملائكة الأعلى الملائكة والضمير في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله،
ومن قال: آلهة تعبد. وقيل: الملائكة الأعلى ها هنا قریش؛ يعني اختصاصهم فيما بينهم سرا، فأطلع الله
نبيه على ذلك. ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن يوحى إلي إلا الإنذار. وقرأ أبو جعفر بن

(١) رواه الطبري، عن مجاهد وشريح وعلي والسدي (٢٣/ ١٨٧) في تفسيره، وكذا رواه الشوكاني (٦/ ٢٥٩) في فتح القدير.

(٢) مرسل: هكذا رواه السيوطي (٥/ ٥٩٥) في الدر مرسلًا وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) غريب: الترمذي (٣٢٣٤) في التفسير، وصححه الألباني.

(٤) حسن صحيح: الترمذي (٣٢٣٥) في التفسير، وصححه الألباني.

القعقاع « إلا إنما » بكسر الهمزة (١)؛ لأن الوحي قول، كأنه قال: يقال لي: إنما أنت نذير مبين، ومن فتحها جعلها في موضع رفع؛ لأنها اسم ما لم يسم فاعله. قال الفراء: كأنك قلت: ما يوحى إلي إلا الإنذار. النحاس: ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى إلا لأنما. والله أعلم.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٣١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾ إذ من صلة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ المعنى: ما كان لي من علم بالملا الأعلى حين يختصمون حين ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾. وقيل: ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ و﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يتعلق بمحذوف؛ لأن المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملا الأعلى وقت اختصاصهم. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ ﴿إِذْ﴾ ترد الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه؛ أي: خلقت. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي: من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري. فهذا معنى الإضافة، وقد مضى هذا المعنى مجودا في «النساء» في قوله في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنِّي﴾ [النساء: ١٧١]. ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ نصب على الحال. وهذا سجود تحية لا سجود عبادة. وقد مضى في «البقرة» (٢). ﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي: امتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعا له وتعظيما لله بتعظيمه ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أنف من السجود له جهلا بأن السجود له طاعة لله؛ والأنفة من طاعة الله استكبارا كفر، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى. وقد مضى الكلام في هذا في «البقرة» (٣) مستوفى.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَأُنَبِّئُكَ رَجِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي صرفك وصدك ﴿أَن تَسْجُدَ﴾ أي: عن أن تسجد ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريما له، وإن كان خالق كل شيء، وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد. فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئا بيده إلا على سبيل الإعظام والتكريم، فذكر اليد هنا بمعنى هذا. قال مجاهد: اليد هنا بمعنى التأكد والصلة؛ مجازه لما خلقت أنا كقوله: ﴿وَيَقِي وَجْهَ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: يبقى ربك. وقيل: التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صفتان

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٧).

(٢، ٣) عند الآية (٣٤).

من صفات ذاته تعالى. وقيل: أراد باليد القدرة^(١)؛ يقال: مالي بهذا الأمر يد. وما لي بالحمل الثقيل يدان. ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر:

تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْرَاءٍ مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْجِبَالِ الرَّأْسِيَّاتِ يَدَانِ

وقيل: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ لما خلقت بغير واسطة. ﴿أَسْتَكْبِرْتُ﴾ أي: عن السجود ﴿أَمْ كُنْتُ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: المتكبرين على ربك. وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة: «بيدي استكبرت» موصولة الألف على الخير وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [السجدة: ٣] وشبهه. ومن استفهم فـ «أم» معادلة لهزمة الاستفهام وهو تقرير وتوبيخ. أي: استكبرت بنفسك حين آبيت السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ قال الفراء: من العرب من يقول أنا أخير منه وأشر منه؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الاستعمال. ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فضل النار على الطين وهذا جهل منه؛ لأن الجواهر متجانسة فحاس فأخطأ القياس. وقد مضى في «الأعراف» بيانه^(٢). ﴿قَالَ فَأَخْرَجُ مِنْهَا﴾ يعني من الجنة: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم بالكواكب والشهب ﴿وَإِنِّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردي وإبعادي من رحمتي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حيثئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْتَبُونَ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يجب إلى ذلك، وآخر إلى وقت معلوم، وهو يوم يموت الخلق فيه، فأخر تهاونا به. ﴿قَالَ فَيُعَذِّبُكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبهة عليهم، فمعنى ﴿لأَعْيُنِهِمْ﴾ لاستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ أي: الذي أخلصتهم لعبادتك، وعصمتهم مني. وقد مضى في «الحجر» بيانه^(٣).

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائي^(٤). وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول. وأجاز الفراء فيه الخفض. ولا اختلاف في الثاني في أنه منصوب بـ ﴿أَقُولُ﴾ ونصب الأول على الإغراء، أي: فاتبعوا الحق واستمعوا الحق، والثاني بإيقاع القول عليه. وقيل: هو بمعنى أحق الحق، أي: أفعله. قال أبو علي: الحق الأول منصوب بفعل مضممر، أي: يحق الله الحق، أو على القسم وحذف حرف الجر؛ كما تقول: الله لأفعلن؛ ومجازه: قال: فباحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه. ﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ جملة اعترضت بين القسم

(١) بل أراد سبحانه اليد بلا تأويل كما يليق بكماله وجلاله سبحانه، وانظر للأهمية: شرح العقيدة الواسطية (ص ١٥٩ - ١٦٨).

(٢، ٣) الآية (١٢) من سورة الأعراف و (٤٠) من سورة الحجر.

(٤) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٦٧).

والمقسم عليه، وهو توكيد القصة، وإذا جعل الحق منصوباً بإضمار فعل كان ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ على إرادة القسم. وقد أجاز الفراء وأبو عبيدة أن يكون الحق منصوباً بمعنى حقا ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز: زيدا لأضرين؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلها فلا يعمل فيه. والتقدير على قولهما: لأملائن جهنم حقا. ومن رفع ﴿الْحَقُّ﴾ رفعه بالابتداء؛ أي: فإنا الحق أو الحق مني. روي جميعاً عن مجاهد. ويجوز أن يكون التقدير هذا الحق. وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء: أن معنى فالحق لأملائن جهنم بمعنى فالحق أن أملاً جهنم. وفي الخفض قولان وهي قراءة ابن السميعة وطلحة بن مصرف: أحدهما: أنه على حذف حرف القسم. هذا قول الفراء قال: كما يقول: الله عز وجل لأفعلن. وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يجز الخفض؛ لأن حروف الخفض لا تضم، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلا من واو القسم؛ كما أنشدوا:

فمثلك حَبْلِي قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعِ

قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ أي: من نفسك وذريتك ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: من جعل على تبليغ الوحي وكنتي به عن غير مذكور. وقيل هو راجع إلى قوله: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: لا أتكلف ولا أتخص ما لم أومر به. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: من سئل عما لم يعلم فليقل: لا أعلم ولا يتكلف؛ فإن قوله: لا أعلم علم، وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^(١). وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم»^(٢). وروى الدارقطني من حديث نافع عن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فسار ليلا فمروا على رجل جالس عند مقرة له، فقال له عمر: يا صاحب المقرة، أولغت السباع الليلة في مقراتك؟ فقال له النبي ﷺ: «يا صاحب المقرة لا تخبره هذا متكلف لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور»^(٣). وفي الموطأ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضا، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض، هل ترد حوضك السباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإننا نرد على السباع وترد علينا»^(٤). وقد مضى القول في المياه في سورة

(١) صحيح: مسلم (٢٧٩٨) في الفتن .

(٢) لا يصح مرفوعاً: الدر المنثور (٦٠١ / ٥) للسيوطي - رحمه الله - وعزاه للبيهقي في الشعب ، وهو في الشعب

(٤) / (٢٧٠) للبيهقي - رحمه الله - من طريق بقية بن الوليد وهو مدلس يسوء ، مقطوعاً على أرطاة بن المنذر ،

قلت : وقد وثقه أحمد كما في بحر الدم (٦١ / ١) لكنه متأخر جداً ، فالكلام مقطوع لا مرفوع .

(٣) ضعيف : الدارقطني (٢٦ / ١) وضعفه ، والمقرة : الحوض الذي يجتمع فيه الماء . النهاية (٥٦ / ٤) لابن الأثير .

(٤) ضعيف وله شواهد تحسنه : مالك في الموطأ حديث رقم (١٤) في الطهارة - باب (٣) (١ / ٢٣ ، ٢٤) وقد حسنته

هناك لشواهد ، ووجدته عند البيهقي (١ / ٢٥٠) في الكبرى ، وابن أبي شيبة (١ / ١٦٧) في المصنف .

ونقلت تصحيح النووي له مرسلأ إلى يحيى بن عبد الرحمن كما في المجموع (١ / ١٧٣ ، ١٧٤) لكنه قال :

«مرسل منقطع» .

قلت : فهي شواهد له .

«الفوقان». ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ قال قتادة: بعد الموت؛ وقاله الزجاج. وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة^(١). وقال الفراء: بعد الموت وقبله. أي لتظهر لكم حقيقة ما أقول ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: في المستأنف، أي: إذا أخذتكم سيوف المسلمين. قال السدي: وذلك يوم بدر^(٢). وكان الحسن يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخير اليقين^(٣). وسئل عكرمة عن حلف ليصنعن كذا إلى حين. قال: إن من الحين ما لا تدركه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ومنه ما تدركه؛ كقوله تعالى: ﴿تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر^(٤). وقد مضى القول في هذا في «البقرة»^(٥) و«إبراهيم»^(٦) والحمد لله.

(١) صحيح إلى ابن زيد وقاتدة: الطبري (٢٣/ ١٩٢) في تفسيره.

(٢) صحيح إليه: السابق - نفسه.

(٣) عزاه السيوطي (٥/ ٦٠١) في الدر لمجاهد والحسن كما عند عبد بن حميد.

(٤) صحيح إلى عكرمة: الطبري (٢٣/ ١٩٣) في تفسيره.

(٥، ٦) عند الآية (٣٦) والآية (٢٥).